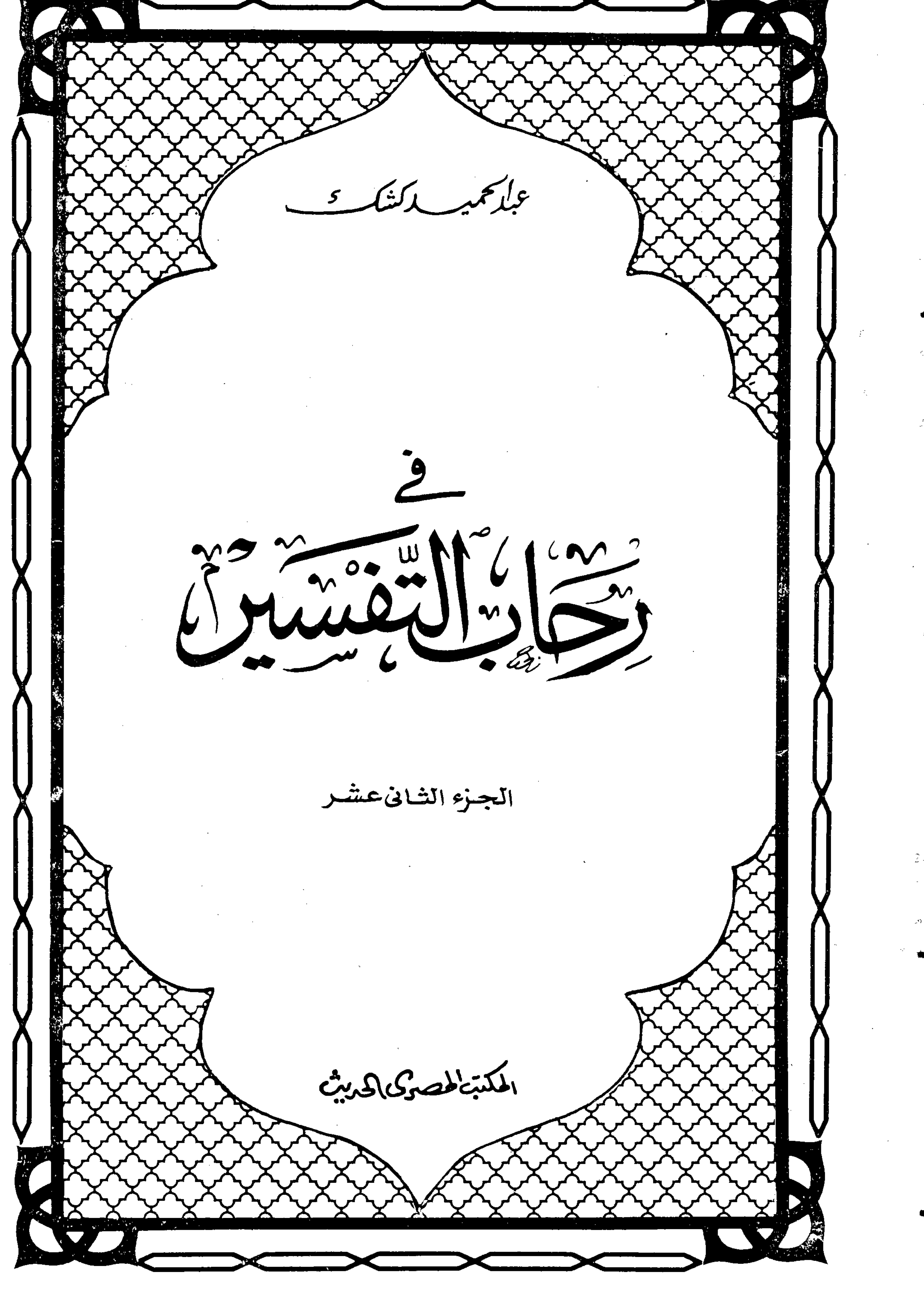


عبد الحميد كشك

# في رحاب التفسير

الجزء الثاني عشر

المكتب المصري الحديث

## الرزق والخلق

* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

**المفردات** : ﴿ **الدابة** ﴾ : اسم لكل نسمة حية تدب على الأرض زحفا أو على قوائم ثنتين فأكثر وغلب عرفا على ما يركب من الخيل والبغال والحمير . والدبُّ والدبيب : الانتقال الخفيف البطىء كدبيب الطفل والشيخ المسن والعقرب ﴿ **والمستقر** ﴾ : مكان الاستقرار من الأرض . ﴿ **والمستودع** ﴾ : حيث كان موَدعاً قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة ﴿ **والعرش** ﴾ : مركز نظام الملك ومصدر التدبير . ﴿ **والبلاء** ﴾ : الاختبار والامتحان ﴿ **والأمة** ﴾ : الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾[1] وأصلها الجماعة من نوع واحد ، أو دين واحد ، أو زمن واحد ﴿ **مصروفاً عنهم** ﴾ : أى مدفوعاً ومجبوراً . ﴿ **وحاق** ﴾ : نزل وأحاط .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل
الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا
لكنه خلق الإنسان من عجل

اعلم ياأخا الإسلام علم اليقين ، بل عين اليقين ، بل حق اليقين أنه لايملك الروح والرزق إلا الله ﴿ وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾[2] وماقدر على ماضغيك أن تمضغاه فلابد أن تمضغاه فامضغه بعزة ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فمه (ولو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا )[3].

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى ، فاطمأن قلبى ، وعلمت أن

(١) الآية ٤٥ من سورة يوسف . (٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد (٣٣) . وابن ماجه فى الزهد (١٤) . والإمام أحمد فى ( ١: ٣٠، ٥٢ ) .

عملى لا يقوم به سواى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع علىّ فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله .

اعلم يا ابن آدم أن الله قد ضمن الأرزاق لكل خلقه ، وليس الرزق مقصوراً على المأكل والمشرب ، إنما هو أعم من ذلك وأرحب أفقاً ، فهدوء البال رزق ، والعافية رزق ، وحسن التدبير رزق ، والعلم رزق ، والذكاء رزق ، والصحة رزق.

وقد ضمن الله تعالى الأرزاق لكل خلقه ، فهو يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[١] . ﴿ وما خلقت الانس والجن إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٢].

﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾[٣] ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾[٤] ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون * وفى السماء رزقكم وما توعدون *فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[٥]

وما من دابة فى الأرض إلا وقد ضمن الله رزقها وهداها إليه ، فالطير تغدو خماصاً وتروح بطانا : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[٦].

والرزق قد جاء مقترنا بعلم الله المحيط ، فسبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون.

قال تعالى ﴿ **ويعلم مستقرها ومستودعها** ﴾ : يعلم مستقرها على تلك الأرض كما علم مستودعها من قبل فى عالم الأرحام ، كل فى كتاب مبين ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴿ قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى *كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٧].

وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام . وتقدير هذه الأيام فى علم الله تعالى ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ أى قبل خلق السموات والأرض ، والعرش غيب من الغيوب ، وهو خلق عظيم لايعلمه إلا خالق القوى والقدر .

(١) الآية ١٢٦ من سورة البقرة . (٣) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت . (٥) الآيات ٢٠ – ٢٣ من سورة الذاريات .
(٢) الآيات ٥٥ – ٥٨ من سورة الذاريات (٤) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس (٦) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة طه .
(٧) الآيات ٥١ – ٥٥ من سورة طه .

وتفيد هذه الآية خلق الماء قبل خلق السموات والأرض ، قال تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[١] وقال : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾[٢].

وقد سخر الله لنا مافى السموات ومافى الأرض ليختبرنا بالعمل قال تعالى ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ﴾[٣].

وقال سبحانه ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ وفعل الله تعالى مبنى على الحكمة منزه عن العبث ، لذا فقد جاء البعث بعد ذكر الخلق ، قال تعالى : ﴿ **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ .

أى ما أردت يامحمد بذكر البعث إلا لكى تصرفنا عن هذه الدنيا واستمتاعنا بلذائذها ، هكذا قال الكافرون ، ولقد طلبوا تعجيل العذاب استهزاء ، ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾[٤] قال تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ماكنتم تعملون ﴾[٥].

قال تعالى : ﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة** ﴾ أى أجلناه إلى أجل معلوم قدره الله فى علمه القديم ، ليقولن استهزاءاً بوعد الله ورسوله ﴿ **مايحبسه** ﴾ ما يمنعه فيأتى الرد القاطع والوعيد الحاسم ﴿ **ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ .

﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلا * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريبا ﴾[٦].

إنه يوم ينزل بهم هذا العذاب لايصرف عنهم ، ليس له دافع من الله ، وعندما يحيط بهم الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٧].

## نماذج من البشر

**وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾**

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنبياء . (٣) الآيات ١ – ٣ من سورة الملك . (٥) الآيات ٥٣ – ٥٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ٤٥ من سورة النور . (٤) الآية ١٦ من سورة ص . (٦) الآيات ١ – ٦ من سورة المعارج .
(٧) الآية ٢٥ من سورة النور .

**المفردات** : ﴿ **الإذاقة** ﴾ : هنا : الإعطاء القليل . ﴿ **النزع** ﴾ : السلب والحرمان ﴿ **واليئوس** ﴾ : شديد اليأس من عود تلك النعمة ﴿ **والكفور** ﴾ : كثير الكفران والجحود لما سلف عليه من النعم ﴿ **والنعماء والنعمة والنُّعمى** ﴾ : الخير والمنفعة ويقابلها الضراء والضر . ﴿ **وفرح** ﴾ : بطر مغتر بهذه النعمة . ﴿ **فخور** ﴾ : متعاظم على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بشكرها .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض ليبلو الإنسان أيشكر أم يكفر ؟ قفىَّ على ذلك طبيعة الإنسان فى ذلك ، وهى أنه إذا أصابته نعماء ثم نزعت منه قنط من روح الله وكفر بها ، وإذا أذاقه نعمة بعد بؤس بطر وفخر – هكذا شأن الإنسان – إلا من صبر وشكر وعمل صالحا .

﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور** ﴾ :

أى ولئن أعطينا الإنسان نوعا من أنواع النعم ، كرخاء عيش ، وبسطة رزق وصحة وأمن وولد بار ، رحمة مبتدأة منا أذقناه لذاتها ، فكان شديد الأغتباط بها ، ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التى قدرها الله فى الخليقة كالمرض والموت والعسر ، إنه ليظل فى هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعا للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها .

**والخلاصـــة** : أنه يجمع بين اليأس بعودة ما نُزع منه ، والكفر بما بقى له ، لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر .

﴿ **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور** ﴾

أى ولئن كشفنا عنه الضراء التى أصابته وحل محلها نعماء ، كشفاء من مرض ، وزيادة قوة ، وخروج من عسر إلى يسر ، ونجاة من خوف وذل ، إنه ليقولن : ذهب ما كان يسوءنى من المصايب والضراء ولن يعود ، وماهى إلا سحابة صيف قد تقشّعت ، وعلىّ أن أنساها وأتمتع بتلك اللذات ، وإنه حينئذ لشديد الفرح بما يهيجه البطر بتلك النعمة ، وإنه ليغالى فى الفخر والتعالى على الناس ، والاحتقار لمن دونه فيها .

**الخلاصـــة** : أنا إذا منحنا هذا الإنسان اليئوس الكفور نعماء أذقناه لذتها بعد ضراء ، باقترافه أسبابها لم يقابلها بشكر الله عليها ، بل يبطر ويفخر على الناس ، ولا يقوم بما يجب عليه من مواساة البائسين الفقراء ، وعمل الخير لبنى الانسان ، كفاء ماهو متمتع به من تلك النعم .

ثم استثنى سبحانه من جنس الإنسان فيما ذكر من حاليه السالفتين قبل الصابرين الذين يعملون الصالحات فقال :

﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾

أى إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانا بالله ، واحتسابا للأجر عنده ، وعملوا الصالحات حينما يكشفها ، ويبدل النعماء بها ، ويشكره باستعمالها ،فيما يرضيه من عمل البر والخير لعباده ، أولئك

لهم مغفرة من ربهم تمحو ما علق بأنفسهم من ذنب أو تقصير ، وأجر كبير فى الآخرة على ما وفقوا لعمله من بر وخير كثير .

**والخلاصة** : إن الإنسان وإن كان مؤمنا حق الإيمان لا يسلم من ضيق صدر حين حلول الضراء والمصائب ، وذلك مما ينافى كمال الرضا ، كما لا يسلم حين النعماء من شىء من الزَّهو والتقصير فى الشكر ، فيغفر له كل منهما بصبره وشكره ، وإنابته إلى ربه .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى ﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[1].

ووصف الأجر بالكبير — لما حواه من نعيم سرمدى ، وأمن من العذاب ، ورضا من الله عز وجل ، ونظر إلى وجهه الكريم ، ورضوان من الله أكبر .

## لا يضيق صدرك

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)

**المفردات** : ﴿ **لعل** ﴾ : هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النهى ﴿ **وضيق الصدر** ﴾ : يراد به الغم والحزن . ﴿ **الكنز** ﴾ : ما يدخر من المال فى الأرض . ﴿ **والوكيل** ﴾ : الرقيب الحفيظ للأمور الموكل بحراستها . ﴿ **والاستجابة للداعى** ﴾ : إجابته . ﴿ **والإسلام** ﴾ : الإذعان والخضوع والانقياد .

اقترح المشركون على رسول الله ﷺ أمورا علقوا إيمانهم عليها ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[2].

كما اقترحوا عليه أن ينزل عليه كنز أو يأتى معه ملك .. إلى غير ذلك من المقترحات التى بلغت حداً لا يُطاق ، ولا يقبله عقل . حتى لقد قالوا له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، فنزل التثبيت والإرشاد والتوجيه من الله : لا تترك بعض ما أوحى إليك من الكتاب ، ولا يضيق صدرك بما يقولون من إنزال الكنز ، ومجىء الملك ، إن أنت إلا نذير ، والأمر كله لله ، فهو الوكيل الرقيب على عباده ﴿ وقل الحق

(١) سورة العصر .
(٢) الآيات ٩٠ ، ٩٣ من سورة الإسراء .

من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[١].

قال جل شأنه : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾[٢].

ثم ينتقل الحديث إلى ضرب آخر من ضروب العناد المقيت والجدل العقيم إلى قولهم عن القرآن « إنه مفترى » كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[٣].

ولقد تحداهم الله تبارك وتعالى وهم الذين ملكوا أزمَّة اللغة ، وعرفوا بأنهم أصحاب الفصاحة وأرباب البلاغة ، لقد تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[٤]

**فعجزوا** فتحداهم أن يأتوا بعشر سور كما فى قوله تعالى : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾[٥] فعجزوا .. فتحداهم أن يأتوا بسورة كما فى قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[٦].

**فتأمل معى هذه الدرجة القصوى من التحدى والتى قال الله تعالى فيها : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وقال فيها : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ بل لقد بيَّن لهم نتيجة هذا التحدى فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[٧].**

لقد عجزوا وبلغ من عجزهم أن ﴿ قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾[٨] **وإذ قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٩] .**

ولو كانوا يستطيعون أن يأتوا لأتوا فذلك أيسر سبيلا من خوضهم المعارك المسلحة التى خاضوها مع المسلمين ، لكنهم قوم آثروا اللجاج والعناد على قبول الحق كما قال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾[١٠].

قوله تعالى : **﴿ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .**

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف . (٢) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة يونس . (٣) الآيات ٤ — ٦ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ٣٤ من سورة الطور . (٥) الآية ١٣ من سورة هود . (٦) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٨٨ من سورة الإسراء . (٨) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٩) الآية ٢٢ من سورة الأنفال .
(١٠) الآية ٥٦ من سورة الكهف .

أى إن لم يستجب لكم هؤلاء الأعوان الذين قال الله فيهم : ﴿ **وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ وفى قوله : ﴿ **وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ . فإن لم يستجيبوا لكم وعجزتم عن الإتيان بسورة أو بعشر ، فما لكم بعد ذلك من حجة ولا برهان ، فقد بدا الصبح لذى عينين وبرح الخفاء وظهر الحق .

فاعلموا أن هذا القرآن أنزل بعلم الله وحده ، وأن الذى أنزله واحد لا شريك له لا إله إلا هو ،وإذا كان ذلك كذلك . وهو كذلك . حقا . فأسلموا وانقادوا وأذعنوا واسمعوا وأطيعوا ، ولا تجادلوا فى الحق بعد ما تبين ، فإن الحق واضح ، والطريق لائح ، والمنادى صائح .

## الويل لهؤلاء

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

**المفردات** : ﴿ **نوف إليهم** ﴾ : أى نوصل إليهم ، ﴿ **ولا يبخسون** ﴾ : لا ينقصون ، ﴿ **وحبط** ﴾ : أى فسد وبطل ولم ينتفعوا به .

قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية أن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا ، يقول من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو فىلا الآخرة من الخاسرين .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ، ويثاب عليها فى الآخرة .

قال ﷺ : [ من أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ] [1].

وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢) . وأبو داود فى الزكاة (٣٤) . والترمذى فى القيامة (٣٠) . والإمام أحمد فى ( ٥:١٨٣ ) .

(٢) الآيات ١٨ – ٢١ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الشورى .

## دلائل صدق النبوة

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

**المفردات** : ﴿ **البينة** ﴾ : ما يتبين به الحق كالبرهان فى الأمور العقلية ، والنصوص فى الأمور النقلية ، والتجارب فى الأمور الحسية ، والشهادة فى القضاء ﴿ **ويتلوه** ﴾ : يتبعه ، والشاهد : هو القرآن ، ﴿ **والموعد**﴾ : مكان الوعد وهى النار يردها كما قال : ﴿ **ليس لهم فى الآخرة إلا النار** ﴾ . ﴿ **والمرية** ﴾ : الشك .

وفى هذه الآية الكريمة يخبرنا الله جلّت قدرته عن الذين هم على بينة من ربهم وحجة وبرهان ، والمراد بالبينة هنا الفطرة التى فطر الله الناس عليها من الاعتراف بأنه هو الحق لا إلّه إلا هو ، كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾(١).

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ](٢).

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ قال:[ يقول الله تعالى إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ](٣).

وفى المسند والسنن [ كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه ] فالمؤمن باق على هذه الفطرة .

أما الشاهد الذى يتلوه من ربه فقيل إنه جبريل ، وقيل محمد ﷺ ، والصحيح أنه القرآن الذى نزل به جبريل من لدن حكيم خبير ، على قلب البشير النذير ، صلوات ربى وسلامه عليه .

وقال فى شأنه رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾(٤)

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز ( ٩٢،٧٩ ) وفى التفسير ( سورة ٣٠ : ١ ) وفى القدر (٣) . ومسلم فى القدر ( ٢٤،٢٢ ) . وأبو داود فى السنة (١٧) . والإمام مالك فى الجنائز (٥٣) . والإمام أحمد فى ( ٢ : ٢٣٣،٢٧٥،٣١٥،٣٤٧،٣٩٣ ) .

(٣) أخرجه مسلم فى الجنة (٦٣) . والإمام أحمد فى ( ٤ : ١٦٢ ) . (٤) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

فالقرآن شاهد صدق ، ودليل حق على نبوته ﷺ ، إذ هو الكتاب المعجز المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر ، المشتمل على قواعد العقائد وشعائر العبادات ومبادىء الأحكام ومناهج السلوك .

كذلك من دلائل صدق نبوته كتاب موسى الذى بشَّر ببعثه خاتم المرسلين وقال الله له فيه : [ أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إلَه إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صماً وقلوبا غلفا ] [١].

قال تعالى : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **أولئك يؤمنون به** ﴾ أى أولئك الذين على بينة من ربهم ، وعلى فطرة الإيمان ونور الإسلام ، يؤمنون بهذا القرآن إيمانا جازما مبنيا على اليقين القطعى ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ [ **أى من طوائف البشر** ] فالنار موعده ومثواه ومأواه .

جاء فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [ والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار ] [٢].

قوله تعالى : ﴿ **فلاتك فى مرية منه** ﴾ أى لا تكن أيها المخاطب فى شك من هذا الكتاب فإنه تنزيل من الرحمن الرحيم . كما قال تعالى : ﴿ آلم * تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ﴾ [٣].

قوله تعالى : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ كقوله جلَّ شأنه : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [٤] وقوله جلَّ جلاله : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ [٥].

## لا أحد أظلم من هؤلاء

**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟**

(١) أخرجه البخارى فى تفسير ( سورة ٤٨:٣ ) وفى البيوع (٥٠) . وأبو داود فى المقدمة (٢) وفى فضائل القرآن (١) .
(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٤٠) .
(٣) الآيات ١ – ٣ من سورة السجدة .
(٤) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .
(٥) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .

يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

**المفردات** : ﴿ **الأشهاد** ﴾ : واحدهم شاهد . ﴿ **واللعنة** ﴾ : الطرد من الرحمة . ﴿ **والصد عن سبيل الله** ﴾ : الصرف عنه . ﴿ **والعوج** ﴾ : الالتواء . ﴿ **ومعجزين فى الأرض** ﴾ : أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه . ﴿ **وضل** ﴾ : أى غاب . ﴿ **ولاجرم** ﴾ : أى حقا .

يخبر سبحانه وتعالى أنه لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كذبا فى أقوال أو أفعال أو تشريعات أو أحكام أو توحيد ( **ومن** ) هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النفى .

فمن افترى على الله كذبا بأن قال على الله ما لم يقله ، وحكم بغير ما أنزل ، هؤلاء يُعرضون على النار فى ساحة الحساب ، حيث يشهد عليهم الأشهاد ويقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، وكفاهم بهذا خزيا ، وحسبهم بتلك الشهادة فضيحة . ألا لعنة الله على الظالمين ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم مرتعه وخيم ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمَّر . ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربَّنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾[١].

وفى حديث ابن عمر فى الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ][٢].

هؤلاء الظالمون الذين استحقوا لعنة الله كانوا فى الدنيا يصدون الناس عن الإيمان بالله ، ويصرفونهم عن اتباع سبيل الله ، ويبغون السبيل المستقيمة ، عوجاً ملتوية متعرجة . وقد أضافوا إلى تلك الجرائم كفرهم باليوم الآخر . إن أولئك الضالين المضلين لم يكونوا بقادرين على أن يهربوا من عقاب الله . وليس لهم أعوان ولا أنصار يمنعون العذاب عنهم . فلا أحد يستطيع أن يقف حائلا بين هؤلاء وبين أمر الله . ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾[٣].

هؤلاء يضاعف لهم العذاب جزاء ضلالهم وإضلالهم ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد

(١) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة ابراهيم .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب (٦٠) وفى المظالم (٢) وفى التفسير ( سورة ١١ : ٤ ) وفى التوحيد (٣٦) . ومسلم فى التوبة (٥٢) . وابن ماجه فى المقدمة (١٣) . والإمام أحمد فى ( ٢ : ٧٤ ، ١٠٥ ) .

(٣) الآية ١١ من سورة الرعد .

ضلوا ضلالا بعيدا * إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾(١) .

قال جلّ شأنه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون** ﴾ أى لشدة كفرهم وطغيانهم وعنادهم عطلوا حواسهم كما فى قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾(٢). وكما فى قوله جلّ شأنه : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾(٣).

﴿ **أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ وأى خسران بعد أن عطلوا حواسهم ، وأغلقوا نوافذ المعرفة ، وبدلوا نعمة قومهم كفرا وأحلوا قومهم دار البوار .

ومما يزيدهم حسرة على حسرتهم أن أصنامهم التى عبدوها قد ضلَّت عنهم يوم القيامة وغابت ، لذلك تراهم فى النار يقولون : ﴿ فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾(٤). لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . أى حقا أنهم هم الأخسرون أعمالا . ﴿ الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾(٥).

## أصحاب الجنة

**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾**

**المفردات** : ﴿ **أخبتوا** ﴾ : أصل الإخبات قصد الخبت وهو المكان المطمئن المستوى والمراد خشعوا وأخلصوا لله .

أما من كان عكس هذا فالله يقول فيه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا له ، واطمأنت نفوسهم بالإيمان ، ولانت قلوبهم ، ووجلت بالقرآن أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

مثل الكافر والمؤمن كالأعمى والأصم والسميع والبصير هل يستويان مثلا ، أتجهلون هذا المثل الحسى والفارق الكبير فلا تتذكرون ؟

(١) الآيات ١٦٧ - ١٦٩ من سورة النساء .
(٢) الآية ٢٦ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٤) الآيتان ١٠٠ - ١٠١ من سورة الشعراء .
(٥) الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الكهف .

## قصة نوح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ
نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ
لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ
ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ
إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا
تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن
قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ

ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ج وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ج وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ج مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ج فَٱصْبِرْ ج إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

## القصة فى القرآن الكريم

إن من أغراض القرآن المهمة إثبات التوحيد وما يتبعه من إثبات النبوة والبعث ، والكلام فى التشريع للفرد والجماعة والأمة ، والقصص الخاص بالأمم السابقة وهو غالبا يساق فى السور المكية والمبدوءة بأحرف مقطعة كهذه السورة مثلا .

وهنا يظهر سؤال لماذا سيقت القصة فى القرآن ؟ وما السر فى اختلاف الأسلوب للقصة الواحدة ؟ ولماذا كررت فى عدة سور ؟

ولقد كان القصص فى كل لغة لونا من ألوان الأدب الفنى الرائع ، لما له من الأثر النفسى فى قلوب سامعيه ، والقصص فى القرآن ينبئنا عن أخبار الأنبياء والرسل ، وما حصل لهم ، وكيف قاموا بدعوتهم ، وكيف عالجوا أزماتهم ، وما انتهى إليه أمرهم ، وعلى العموم فهو مدرسة إلهية معلموها الأنبياء ، وتلاميذها الأمم .

ولقد سيقت للعبرة والعظة ، حيث يقف المسلمون والمشركون على أحوال من تقدمهم من الأمم ، فيعتبر ذوو الألباب ويتعظون ، وفيها التسلية الكاملة للنبى ﷺ وصحبه ، من حيث يقفون على أخبار الرسل وأممهم ، وكيف كانت العاقبة للمتقين ، والدائرة على الكافرين المعاندين .

وفى هذا تثبيت لهم ، وشحذ لعزائمهم ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[١] ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[٢] والعبرة والعظة تظهر فى قوله تعالى ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[٣] .

ولقد سيقت القصة دليلا على صدق الرسول ، وأن خبره من السماء ، إذ هو يقص أخبارا ماكان يعلمها هو ولا أحد من قومه ، ولا يكون هذا إلا بوحى من السماء ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ .
﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾[٤]

وهى علاج للقلوب ، ودواء للنفوس ، لما فيها من أخبار الأمم وما حل بالعاصين من عاجل بأس الله ، فأهل اليقين وغير هم إذا تلوها تراءى لهم من ملكه وسلطانه وعظمته وجبروته ، حيث يبطش بأعدائه ما تذهل منه النفوس ، وتشيب منه الرؤوس « شيبتنى سورة هود وأخواتها » صدق رسول الله .

والقصة مدرسة للمؤمنين المنتفعين بهدى القرآن ﴿ **هدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾ . فيها أحسن الدروس ، وأقوى الأمثال التى تضرب لتحمل الدعاة والمرشدين ﴿ **إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ ﴿ **يا قوم ليس بى سفاهة ولكن رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين** ﴾ ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾ إلى آخر مافى قصة نوح .

أما تكرارها فى القرآن فلما فى أغراضها ومقاصدها من معان جليلة وفوائد سامية يحرص القرآن دائماً على ذكرها لتكون ماثلة أمام أعين المسلمين بكل لون وأسلوب ، ولا غرابة فإنا نرى أصحاب الثورات والدعوات دائما فى كل خطبة وفى كل موقف يرددون مبادئهم وأغراضهم وأعمالهم بأساليب مختلفة .

ولعل السر فى اختلاف الأسلوب فى القصة الواحدة تجديد النشاط وطرد السأمة والملل من نفس القارئ والسامع ولا تنس أن لكل سورة لونا خاصا وصفة خاصة وجرسا خاصاً ، وفواصل خاصة وحالا للمخاطب خاصة تتناسب مع السياق وعلى العموم فلكل قصة سياق يتناسب مع ما سبقها وما أتى بعدها وهذا بحث يحتاج إلى كتاب يبحث فيه حال القصة الواحدة مع كل الملابسات السابقة

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود .
(٣) الآية ١١١ من سورة يوسف .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة يوسف .

**المفردات** : ﴿ **الملأ** ﴾ : الأشراف والزعماء . ﴿ **وأراذل** ﴾ : واحدهم أرذل وهو الخسيس الدنيء . ﴿ **وبادى الرأى** ﴾ : أى ظاهره قبل التأمل . ﴿ **أرأيتم** ﴾ : أى أخبرونى . ﴿ **والبينة** ﴾ : ما يتبين به الحق . ﴿ **وعمّيت** ﴾ : أخفيت . ﴿ **وطرده** ﴾ : أبعده . ﴿ **وتجهلون** ﴾ : أى تسفهون عليهم وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم . ﴿ **وتذكرون** ﴾ : أصله تتذكرون . ﴿ **وزرى** ﴾ : على فلان زراية : عليه واستهزأ به . ﴿ **أصل الجدال** ﴾ : هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصلبة ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب . ﴿ **والنصح** ﴾ : تحرى الخير والصلاح للمنصوح له والإخلاص فيه قولاً وعملاً . ﴿ **الإغواء** ﴾ : الإيقاع فى الغى وهو الفساد الحسى والمعنوى ﴿ **والإجرام** ﴾ : الفعل القبيح الضار الذى يستحق فاعله العقاب . ﴿ **ابتأس** ﴾ : اشتد بؤسه وحزنه . ﴿ **والفلك** ﴾ : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ﴿ **وسخر منه** ﴾ : استهزأ به . ﴿ **ويخزيه** ﴾ : يذله ويفضحه . ﴿ **ومقيم** ﴾ : أى دائم . ﴿ **الفور والفوران** ﴾ : الارتفاع القوى . يقال فى الماء إذا نبع وجرى وإذا علا وارتفع والمراد منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس وحلول وقت انتقامه منهم . ﴿ **والتنور** ﴾ : ما يخبز فيه الخبز - اتفقت فيه لغة العرب والعجم . ﴿ **وأهل بيت الرجل** ﴾ : نساؤه وأولاده وأزواجهم . ﴿ **ومجريها ومرساها** ﴾ : أى إجراؤها وإرساؤها . ﴿ **ومعزل** ﴾ : أى مكان عزلة وانفراد . ﴿ **وآوى** ﴾ : أى ألجأ وعصمه : حفظه ﴿ **والبلع** ﴾ : ازدراد الطعام والشراب بسرعة . ﴿ **وغاض الماء** ﴾ : غار فى الأرض ونضب . ﴿ **والجودى** ﴾ : جبل بالموصل .

بعد أن ذكر بعثة النبى الكريم ، وأثبت بالبرهان أنه رسول من رب العالمين ، وأن القرآن وحى من الرحمن الرحيم ، قفى على ذلك بقصص الأنبياء قبله ، ليبين لقومه أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل ، وأنه إنما بعث بمثل ما بعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده ، والإيمان بالبعث والجزاء ، فحاله معهم كحال من قبله من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم جملة وتفصيلا ، كما قال سبحانه ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين** ﴾ .

أى ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه قائلاً لهم إنى لكم نذير من الله أنذركم بأسه على كفركم به ، فآمنوا به وأطيعوا أمره .

ثم فسر هذا الإنذار بقوله : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ أى بألا تعبدوا إلا الله ، ولا تشركوا به شيئا .

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الإسراء .

وكانوا أول من أشرك بالله ، واتخذوا الأنداد ، وكان هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، ثم علل هذا بقوله :

﴿ **إنى أخاف عليكم** ﴾ أى إن لم تخصوه بالعبادة ، وتفردوه بالتوحيد ، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والأوثان ، أخاف عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه ، وعذابه لمن عذب فيه .

وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى فى رد دعوته :

١ - ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا** ﴾ :

أى أن الأشراف والزعماء بادروا إلى الجواب بقولهم : ما أنت إلا بشر مثلنا فى الجنس ، لا مزية لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

٢ - ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ :

أى وإنا لم نرمتبعيك إلا الأخساء كالزراع والصناع ، ومن فى حكمهم فى المكانة الاجتماعية ، بادى الرأى قبل التأمل فى عواقبه ، والنظر فى مستنده ، وترجيح العقل له ، وهذا مما يرجح رد الدعوة والتولى عنها .

٣ - ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ :

أى وما نرى لك ولمن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كثرة أو علم أو أصالة رأى ، يحملنا على اتباعكم ، ويجعلنا ننزل عن جاهنا ومالنا ونكون نحن وأنتم سواء .

٤ - ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ :

أى بل إنا نرجح الحكم عليك وعليهم بالكذب ، فأنت كاذب فى دعوى النبوة ، وهم كاذبون فى تصديقك ، وهذه الشبهة الأخيرة طعن على نوح عليه السلام ، أشركوا فيها أتباعه ولم يجابهوه بها وحده ، كما أنهم جعلوها ظنا ولم يجزموا بها ، لأن ذلك كاف فى رد دعوته ، وعدم الدخول فى دينه .

قوله تعالى : ﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمّيت عليكم** ﴾ :

أى قال ياقومى . أخبرونى ماذا ترون وماذا تقولون ، إن كنت على حجة فيما جئتكم به من ربى ، يتبين لى بها أنه الحق من عنده ، لا من عندى ، ومن كسبى البشرى . الذى تشاركوننى فيه ، وآتانى رحمة من عنده ، وهى النبوة ، وتعاليم الوحى التى هى سبب رحمة خاصة لمن يهتدى بها ، فحجبها عنكم جهلكم وغروركم بالمال والجاه ، فلم تتبينوا منها ما تدل عليه من التفرقة بينى وبينكم ، فمنعتم فضل الله عنى بحرمانى من النبوة .

قوله تعالى : ﴿ **أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾ :

أى أنكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين لها ، كلا إنا لا نفعل ذلك ، بل نكل أمركم إلى الله حتى يقضى فى أمركم ما يرى ويشاء ، وما علىّ إلا البلاغ .

وهذا أول نص فى دين الله على أنه لا ينبغى أن يكون الإيمان بالإكراه .

وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، ورد لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، وإبطال لشبهتهم فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لا تقتضى استواء أفراد الجنس فى الكمالات والفضائل ، فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى والأخلاق والأعمال ، حتى أن الواحد منهم ليأتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجز عن مثلها الألوف من الناس فى أجيال كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ **وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله** ﴾ :

أى لا أسألكم على نصيحتى لكم ، ودعوتكم إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له إلا خيركم ومصلحتكم ، ولا أريد بذلك مالا فأكون متهماً فيه عندكم لمكانة حب المال من أنفسكم واعتزازكم به علىّ وعلى الفقراء من أتباعى ، فما أجرى على ذلك إلا على الله الذى أرسلنى ، فهو الذى يجازينى ويثيبنى عليه .

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده فجاءت على لسان هود ، وصالح ، وشعيب ، ومحمد ، صلوات الله عليهم أجمعين ، كما ترى ذلك فى سورة الشعراء محكيا عنهم .

قوله تعالى : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ :

أى ليس من شأنى ، ولا بالذى يكون منى أن أبعد من يؤمن بى وأنحيه عنى ، احتقاراً له على أى حال كانت صفته .

وفى هذا إيماء إلى الجواب عن قولهم ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ وقد روى أنهم قالوا له : يا نوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء ، فإنا لن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

ثم علل الامتناع من طردهم بقوله : ﴿ **إنهم ملاقوا ربهم** ﴾ : أى إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم صائرون إلى ربهم ، وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسبهم وشرفهم .

﴿ **ولكنى أراكم قوماً تجهلون** ﴾ أى تجهلون ما يمتاز به البشر بعضهم عن بعض ، من اتباع الحق والتحلى بالفضائل ، وعمل البر والخير ، وتظنون أن الميزة إنما تكون بالمال والجاه .

وقد جاء هذا المعنى فى قصته من سورة الشعراء ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمى بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين ﴾[1]

(١) الآيات ١١١ — ١١٥ من سورة الشعراء .

قوله تعالى : ﴿ وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ﴾ :

أى وياقوم لا أجد أحداً يمنع عنى ما أستحقه من عقاب الله إن طردتهم بعد إيمانهم ، واتباعهم إياى فيما بلغتهم ، فإن ذلك ظلم عظيم يستحق شديد العقاب ، مهما تكن صفة من اجترحه ، كما قال فى سورة الأنعام ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾[١].

﴿ أفلا تذكرون ﴾ : أى أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطأ لائحه فتنتهوا عنه ، فإن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم .

قوله تعالى : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ﴾ :

أى ولا أقول لكم بادعائى للنبوة والرسالة إن عندى خزائن رزق الله ، أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنفق على نفسى وعلى من تبعنى بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيرى فى الكسب سواء ، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة ، ولا من خصائص النبى ، ولو كان كذلك لا تبع الناس الرسل لأجلها ، بل الغاية من بعث الرسل تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته ، وتأهيلها لمثوبته فى دار كرامته ورضاه عنها ، يوم لا ينفع مال ولا بنون .

﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ :

فلا أمتاز عن سائر البشر بعلم مالا يصل إليه علمهم الكسبى من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم فى معايشهم . وكسبهم ، فأخبر بها أتباعى ليفضلوا عليكم ، ومن ثم أمر الله نبيه أن يقول لقومه ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿ ولا أقول إنى ملك ﴾ : من الملائكة أرسلت إليكم ، فأكون كاذباً فيما أدعى ، بل أنا بشر مثلكم أمرت بدعائكم . إلى الله ، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم .

وفى هذا دحض لشبهتهم ، إذ زعموا أن الرسول من الله إلى البشر يجب أن يفضلهم ، ويمتاز عنهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يكون ملكاً يعلم مالا يعلمه البشر ، ويقدر على مالا يقدر عليه بشر .

قوله تعالى : ﴿ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ :

أى ولا أقول للذين اتبعونى وآمنوا بالله وحده . وأنتم تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار ، فتزدريهم أعينكم لفقرهم ورثاثة حالهم : لن يؤتيهم الله خيرا ، وهو ما وعدوه على الإيمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة .

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

﴿ الله أعلم بما فى أنفسهم ﴾ :

أى الله أعلم بما فى صدورهم ، وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة ، ومن اتباع رسوله بإخلاص وصدق سريرة ، لا كما زعمتم من اتباعهم إياى بادى الرأى ، بلا بصيرة ولا علم .

﴿ إنى إذاً لمن الظالمين ﴾ :

أى إنى إذا قضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته لى ألسنتهم على غير علم منى بما فى نفوسهم ، أكون ظالماً لهم بهضم حقوقهم

قوله تعالى : ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ :

أى قال قومه له : قد حاججتنا فأكثرت جدالنا ، واستقصيت فيه ، فلم تدع حجة إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا ، ولم يبق لدينا شيء نقوله ، كما قال فى سورة نوح حكاية عنه ﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ﴾[1] أى فأتنا بما تعدنا من عذاب الله الدنيوى الذى تخافه علينا ، وهو الذى أراده بقوله ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ إن كنت صادقاً فى دعواك أن الله يعاقبنا على عصيانه فى الدنيا . قبل عقاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ **قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين** ﴾ :

أى قال لهم نوح حين استعجلوا العذاب : ياقوم إن هذا العذاب بيد الله لا أملكه ، وهو الذى يأتيكم به إن تعلقت مشيئته فى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، ولستم بفائتيه هربا منه إن أخره لحكمة يعلمها ، وهو واقع لا محالة متى شاء ، لأنكم فى ملكه وسلطانه ، وقدرته نافذة عليكم .

قوله تعالى : ﴿ **ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** ﴾ :

أى إن نصحى لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتى له فيما أدعوكم إليه ، بل يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى له ، وقد مضت سنته كما دلت عليه التجارب أن النصح إنما يقبله المستعد للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغى والفساد ، باجتراحه أسبابه من غرور بغنى وجاه ، أو باتباع هوى وحب شهوات ، تمنع من طاعة الله تعالى .

**والخلاصـــة** : أن معنى إرادة الله إغواءهم اقتضاء سننه منهم أن يكونوا من الغاوين ، لا خلقه للغواية فيهم ابتداء ، من غير عمل منهم ، ولا كسب لأسبابها ، فإن الحوادث مرتبطة بأسبابها ، والنتائج متوقفة على مقدماتها .

قوله تعالى : ﴿ **هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾ :

أى هو مالك أموركم ومدبرها بحسب سننه المطرده فى الدنيا ، ولكل شيء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، وإليه ترجعون فى الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير وشر، ولا تظلمون نقيرا .

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة نوح .

قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون** ﴾

أى بل أيقول مشركو مكة إن محمداً افترى خبر قوم نوح ، فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

﴿ **قل إن افتريته فعلى إجرامى** ﴾ : أى إن كنت افتريته على الله كما تزعمون فما عليكم فى ذلك من بأس ، إنما إثم ذلك وعقابه علىّ ، ومن كان يؤمن أن هذا إجرام يعاقب عليه فاعله ، فما الذى يحمله على اقترافه .

﴿ **وأنا برىء مما تجرمون** ﴾:

أى كما أنى برىء من آثامكم وذنوبكم فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله ، كما قال سبحانه ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ :

أى وأوحى الله إلى نوح بعد أن استعجل قومه العذاب ، ودعا عليهم دعوته التى حكاها الله عنه ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[1].

أنه لن يؤمن أحد منهم فيتبعك على ما تدعوه إليه ، إلا من قد آمن من قبل ، فيظل على إيمانه ، فلا يشتدن عليك البؤس والحزن بعد اليوم بما كانوا يفعلون فى السنين الطوال من العناد والإيذاء والتكذيب لك ، ولمن آمن معك ، فأرح نفسك بعد الآن من جدالهم ، ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام ، وحان حين العذاب .

قوله تعالى : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ :

أى واصنع الفلك الذى سننجيك ومن آمن معك فيه ، وأنت محروس ومراقب برعايتنا ، أى إننا حافظوك فى كل آن فلا يمنعك من حفظنا مانع ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه ، فلا يعرض لك خطأ فى صنعته ، ولا فى وصفه .

ونحو الآية قوله لموسى ﴿ ولتصنع على عينى ﴾[2] وقوله لمحمد ﷺ ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[3] .

قوله تعالى ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ .

أى ولا تراجعنى فى شىء من أمرهم من دفع العذاب عنهم ، وطلب الرحمة لهم ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، وقضى عليهم بالإغراق .

**والخلاصـــة** : لا تأخذنك بهم رأفة ، ولا شفقة .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح . (٢) الآية ٣٩ من سورة طه . (٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

قوله تعالى: ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾ .

أى وشرع يصنع الفلك ، وكلما مر عليه جماعة من كبراء قومه استهزءوا به ، وضحكوا منه ، وتنادروا عليه ، ظنا منهم أنه أصيب بالهوس والجنون .

روى أنهم قالوا له : أتحولت نجاراً بعد أن كنت نبياً ، وليس ذلك بالغريب منهم ، فإنه ما من أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سخروا قبل أن يكتب له النجاح فيه .

قوله تعالى ﴿ **إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** ﴾ .

أى قال لهم نوح مجيباً لهم عن سخريتهم ، إن تسخروا منا اليوم وتجهلونا ، لرؤيتكم مالا تتصورون له فائدة ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون جزاء وفاقاً نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدا لما سيحل بكم .

﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾

أى فإن كنتم لا تعلمون اليوم فائدة ما نعمل ، وماله من عاقبة محمودة ، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه ويجلب له العار والخزى فى الدنيا وهو عذاب الغرق ، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة بعد ذلك ، وكل ما فى الدنيا فهو هين لين بالنسبة إلى ما يكون فى الآخرة لانقضائه وزواله ، وبقاء ذاك ودوامه .

قوله تعالى ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور** ﴾

أى حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ، ونبع الماء من التنور ، وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، والأقرب أن يكون المراد من التنور وجه الأرض ، ويكون المعنى حتى إذا نبع الماء من وجه الأرض .

وقوله تعالى ﴿ **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ .

أى حتى إذا أمرنا قلنا لنوح آنئذ : احمل فى السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين ذكرا وأنثى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ، ويبقى نوعها على الأرض .

قوله تعالى ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن** ﴾ :

أى واحمل فيها أهل بيتك ذكرانا وإناثا ، إلا من سبق القول بأنهم من المغرقين بسبب ظلمهم ، كما قال :﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ واحمل من صدّق واتبعك من قومك .

وقوله تعالى : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ منهم ، قيل إنهم كانوا ثمانية : نوحا عليه السلام وأهله وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، ولم يبين الله ورسوله لنا عددهم ، فحصره فى عدد معين من قبيل الحدس والتخمين ، كما لم يبين لنا أنواع الحيوان التى حملها ، ولا كيف حملها وأدخلها السفينة ، وقد فصل ذلك فى سفر التكوين .

وقوله تعالى ﴿ **وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها** ﴾ :

أى فحملهم نوح وقال : اركبوا فيها باسم الله جريانها وإرساؤها ، فهو الذى يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، وقد يكون المعنى أن نوحا أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله ، أى بتسخيره وقدرته مجراها حين تجرى ، ومرساها حين يرسيها لا بحولنا ولا بقوتنا .

﴿ **إن ربى لغفور رحيم** ﴾ : أى إن ربى لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم بذنوبهم ، بل يهلك الكافرين الظالمين منهم ، رحيم بهم إذ سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذى اقتضته مشيئته .

أخرج الطبرانى وغيره عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : باسم الله الملك الرحمن الرحيم ( باسم الله مجريها ) الآية ) .

وقوله تعالى ﴿ **وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** ﴾ : أى هى تجرى بهم فى موج يشبه الجبال فى علوه وارتفاعه وامتداده ، ومن كابد ما يحدث فى البحار العظيمة من الأمواج حين ما تهيجها الرياح الشديدة ، عرف أن المبالغة فى هذا التشبيه غير بعيدة ، فإن السفينة لترى كأنها تهبط فى غور عميق كواد سحيق ، يرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، وبعد هنية يرى أنها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها فى شاهق جبل ، تريد أن تنقض منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها ، لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها .

ثم بين أن نوحا دعته الشفقة على ابنه فناداه ، كما أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنىّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين** ﴾ :

أى وناداه حين الركوب فى السفينة وقبل أن تجرى بهم ، وكان فى منعزل بعيد عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه ، يا بنى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين الذين قضى عليهم بالهلاك .

فرد ابنه عليه : ﴿ **قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء** ﴾ أى قال : سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء فيحفظنى من الغرق .

فأجابه نوح مبينا له خطأه : ﴿ **قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾ :

أى وقال نوح لابنه لا شيء يعصم أحدا فى هذا اليوم العصيب من عذاب الله الذى قضاه على الكافرين ، فليس الأمر أمر ماء يُتَّقَى بالأسباب العادية ، وإنما هو انتقام من أشرار العباد الذين أشركوا بالله ، وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم فى البلاد ، لكنه يحفظ من رحم ويعصمه ، وقد اختص بهذه الرحمة من حملهم فى السفينة ، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتى حال بين الولد ووالده فكان من المغرقين الهالكين .

وقد وصف سبحانه هذا الطوفان فى سورة القمر ، قال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مُدّكِر * فكيف كان عذابى ونذر ﴾[١] .

وإنه لمنظر تشيب من هوله الولدان ، ماء ينهمر من السماء انهمارا وأرض تتفجر فتفيض ماء ثجاجا ، يصير بحراً متلاطم الأمواج ، تغطت من تحته الأرض بجبالها ووديانها ، وخفيت من فوقه السماء بكواكبها وشمسها ، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء فى بدء التكوين .

ثم ذكر ما حدث بعد هلاكهم مبينا قدرته تعالى فقال : ﴿ **وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقُضى الأمر واستوت على الجودِىّ وقيل بُعدا للقوم الظالمين** ﴾ .

أى وجاء نداء من الملأ الأعلى ، خوطبت به الأرض والسماء : يا أرض ابلعى ماءك الذى عليك ، والذى تفجر من باطنك ، وياسماء كفّى عن المطر ، فلم يلبث أن غاض الماء امتثالا للأمر ، وقضى الأمر بإهلاك الظالمين ، واستقرت السفينة راسية على جبل الجودى ، وقيل هلاكا وسُحقا للظالمين ، وبُعدا لهم من رحمة الله بما كان من ظلمهم وفقدهم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

قوله تعالى ﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ :

أى ونادى نوح ربه إثر ندائه لابنه الذى تخلف عن السفينة ، ودعا إليها فلم يستجب ، فقال : يارب إن ابنى هذا من أهلى الذى وعدتنى بنجاتهم ، إذ أمرتنى بحملهم فى السفينة ، وإن وعدك الحق الذى لا خُلْف فيه ، وأنت خير الحاكمين بالحق ، كما قلت ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾[٢] فحكمك يصدر عن كمال العلم والحكمة ، فلا يعرض له الخطأ ولا الحيف والظلم .

والخلاصة : أن نوحا كان يريد أن ينجو ابنه الذى تخلف عن السفينة من الغرق بعد أن دعاه إليها ، ومن البين أن هذا الدعاء لابد أن يكون بعد المحاورة مع ابنه قبل أن يحول بينهما الموج .

﴿ **قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عَمَلٌ غير صالح** ﴾ :

أى قال الله تعالى : يا نوح إنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم فى الفلك لإنجائهم ، وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح ، أى فهو يتنكب الصلاح ، ويلتزم الفساد .

﴿ **فلا تسألنِ ما ليس لك به علم** ﴾ .

أى فلا تسألنى فى شيء ليس لك به علم صحيح ، وقد سمى دعاءه سؤالا ، لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله ، وما رتبه عليه من طلب نجاة ولده .

(١) الآيات ٩ - ١٦ من سورة القمر .
(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

وفى الآية إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله فى خلقه ، بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعى ، ولا بطلب ما هو محرم شرعا ، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب ، والتوفيق فيها ، والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام ، لنكثر من عمل الخير ، ونزيد من عمل البر والإحسان .

**﴿ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾** :

أى إنى أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون ، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه ، إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم ، وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء ما نهى الله عنه نبيا من أولى العزم من رسله ، أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم مالم يعط مثله لرسله .

ثم ذكر طلب نوح المغفرة من ربه على ما فرط منه من السؤال ، حاكيا عنه : **﴿ قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾** :

أى قال نوح : رب إنى ألتجئ إليك وأحتمى بك من أن أسألك بعد الآن شيئا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لى ذنب هذا السؤال الذى سولته الرحمة الأبوية ، وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحمنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شىء ، أكن من الخاسرين فيما حاولته من الربح بنجاة أولادى كلهم وسعادتهم بطاعتك ، وأنت أعلم بهم منى .

والعبرة فى الآية من وجوه :

(١) إن ما سأله نوح لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأ فى اجتهاد بنية صالحة ، وعَدَّ هذا ذنباً لأنه ما كان ينبغى لمثله من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، ومثل هذا الاجتهاد لم يُعصم منه الأنبياء ، فهم يقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم حينا بعد حين .

(٢) أنه لا علاقة للصلاح بالوراثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد ، وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه فى السفينة كلهم مؤمنين .

إنه تعالى يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم ، ولا يحابى أحدا منهم لأجل الآباء وإن كان من الأنبياء والمرسلين .

(٤) إن من يغتر بنسبه ولا يعمل ما يرضى ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين والأولياء الصالحين ، فهو جاهل بكتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

**﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾** :

أى قال الذى بيده ملكوت كل شىء ، ومدبر أمر العالم كله لنوح ، بعد أن انتهى الطوفان ، وأقلعت السماء عن المطر ، وابتلعت الأرض ماءها ، وصارت السكنى على الأرض والعمل عليها سهلا ممكنا : يا نوح اهبط من الجودى الذى استوت عليه السفينة ، ممتعا بسلام وتحية منا ، كما قال تعالى ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾[1] وبركات فى المعايش والأرزاق ، تفيض عليك وعلى من معك فى السفينة ، وعلى ذريات يتناسلون منهم ، ويتفرقون فى الأرض ، فيكونون أمما مستقلا بعضها من بعض ، ومنهم أمم آخرون من بعدهم سنمتعهم فى الدنيا بالأرزاق والبركات ، ولا يصيبهم لطف من ربهم ورحمة منه كما يصيب المؤمنين ، فإن الشيطان سيغويهم ويزين لهم الشرك والظلم والبغى ، ثم يمسهم العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، لأنهم لا يحافظون على السلام ، بل يبغى بعضهم على بعض ، لتفرقهم واختلافهم فى هداية الدين التى بعث بها المرسلون ، ويكون جزاؤهم فى الآخرة النار وبئس القرار .

ثم ذكر لنبيه ﷺ أن هذا قصص من عالم الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل ، فقال : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ :

أى هذا القصص الذى قصصته عليك من خبر نوح وقومه من أخبار الغيب لم تشهدها حتى تعلمها ، نوحيها إليك نحن فنعرّفها تفصيلا ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل الوحى الذى نزل مبينا لها ، وربما كان يعلمها هو وقومه على سبيل الإجمال .

﴿ **فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ : أى فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من قومك من أذى كما صبر نوح على قومه ، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين الذين يجتنبون المعاصى ويعملون الطاعات ، فأنتم الفائزون المفلحون ، والمصرّون على عداوتكم هم الخاسرون الهالكون .

## قصة هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ

(١) الآية ٧٩ من سورة الصافات .

أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

**المفردات** : ﴿ **فطرنى** ﴾ : خلقنى على الفطرة السليمة . ﴿ **مدراراً** ﴾ : كثيرا . ﴿ **اعتراك** ﴾ : أصابك . ﴿ **آخذ بناصيتها** ﴾ : المراد مسخرها ومصرفها كيف شاء . ﴿ **جبار** ﴾ : القاهر الذى يجبر غيره على اتباعه . ﴿ **عنيد** ﴾ : لا يذعن إلى الحق مهما كان .

قوله تعالى : ﴿ **وإلى عادٍ أخاهم هودا** ﴾ :

أى وأرسلنا هوداً إلى قبيلة عاد ، وهى عربية وكانت تسكن الأحقاف فى شمال حضرموت ، وغربى عمان ، وكانت قبيلة ذات بطن ، وكانوا أصحاب زرع وضرع ، زادهم الله بسطة فى الجسم والمال ، وهم خلفاء قوم نوح ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[1] ، ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين ﴾[2] .

أرسل اليهم أخاهم هودا ، من أوسطهم نسبا وأكرمهم بيتا ، قال لهم : يا قومى ويا أهلى اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به غيره ، مالكم من إلّه غيره ، خلقكم ورزقكم ، وأمدكم بما تعلمون ومالا تعلمون ، إن أنتم إلا مفترون على الله الكذب فى اتخاذكم الشركاء والأوثان .

وكان فى قبيلة عاد مترفون ألفوا التعالى على الغير ، واستمتعوا بالنعم حتى امتلأت قلوبهم كبرا وبغيا وفسادا وضلالا ، وهؤلاء هم أعداء الحق دائما ، إذ يرون فى النبوة نورا يعمى أبصارهم ، ويفتح أذهان العامة فيأخذون حقهم ، فتكسر شوكتهم ، وتضيع دولتهم ، لذلك نرى مع كل نبى أن أول كافر به هم أشراف قومه ، إذ كيف يخضعون لواحد منهم بشر مثلهم ؟ ! !

(١) الآية ٦٩ من سورة الأعراف .
(٢) الآيات ١٢٨ - ١٣٣ من سورة الشعراء .

قال هؤلاء : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ إنا إذاً لفى ضلال مبين ، ما أنت إلا شخص لك غرض خاص فى هذه الدعوة .

فيرد عليهم هود : يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده ونبذ الشرك والشركاء ، لا أسألكم عليه أجرا حتى تتهمونى بطلب المنفعة ، وأن لى غرضا ، ما أجرى إلا على الذى خلقنى على الفطرة السليمة ، وهدانى إلى الحق الذى أدعو إليه ، أفلا تعقلون ما أدعوكم إليه ، وتميزون بين الحق والباطل .

ويا قوم استغفروا الله من ذنوبكم ثم توبوا إليه توبة نصوحا ، إنكم إن فعلتم ذلك يرسل المطر عليكم كثيرا ، فأنتم فى حاجة إليه ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، وعزا زيادة على عزكم ، وإياكم والإعراض عن دعوتى فإن فيها الخير والفلاح .

قالوا : إنا لنراك فى سفاهة وضعف عقل ، وخروج عن جادة الصواب ، وإنا لنظنك من الكاذبين .

قال هود : ليس بى سفاهة ، وكيف أكون كذلك وأنا رسول رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين .

اشتد الأمر بعد ذلك ، وقالوا : يا هود ما جئتنا بحجة قوية تدل على أنك رسول من الله ، وما نحن بتاركى آلهتنا صادرين عن قولك من تلقاء نفسك ، وما نحن لك بمؤمنين ومصدقين برسالتك ، إن نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بسوء ، حين تعرضت لهم ، وإنك اليوم مصاب بخبل فى العقل ، وجنون فى الرأى .

قال هود : إنى أشهد الله إنى بلغت ما كلفت به ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون به ، وإذا كان الأمر كذلك وأن آلهتكم لها قدرة على عمل ، فأجمعوا أمركم ، واجمعوا شركاءكم ، ثم كيدونى جميعا ولا تمهلون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ووكلت له أمر حفظى ، وهو على كل شىء قدير ما من دابة فى الأرض أو السماء إلا هو آخذ بناصيتها ، ومصرف أمرها ، ومسخرها إلى أجل مسمى ، إذ له ملك السماوات والأرض ، إن ربى على صراط مستقيم ، هو طريق الحق والعدل .

فإن تتولوا بعد هذا ، ولم تطيعوا أمرى ، فقد بلغت ما أرسلت به إليكم ، وأبرأت ذمتى من الله ، وسيستخلف ربى قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ ، وقائم ورقيب ... وهذه هى النهاية .

ولما جاء وقت أمرنا ونزول عذابنا ، نجينا هودا ومن معه من المؤمنين برحمة خاصة بهم ، لا تتعداهم إلى غيرهم ، ونجيناهم من عذاب غليظ فظيع ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾[١] .

---

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة القمر .

﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾[1] .

وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله أى جنس الرسل وجنس الآيات الصادقة بآية ورسول ، وهم قد اتبعوا أمر كل جبار ، يجبر غيره على اتباع رأيه ، وهم الأشراف العنيدون الذين لا يخضعون للحق مهما كان ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ، وطرداً من رحمة الله ، ولحقت بهم من كل مَنْ وقف على خبرهم بعد ذلك لعنة .

ألا إن عادا كفروا بربهم ، وجحدوا بآياته ، وكذبوا رسله ، ألا بعدا وطرداً من رحمة الله لعاد ، وهم قوم هود .

## قصة صالح عليه السلام

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾

**المفردات :** ﴿ **استعمركم فيها** ﴾ : جعلكم تعمرونها . ﴿ **مريب** ﴾ : الريب الظن والشك يقال رابنى من فلان أمر يريبنى ريبا ، إذا استيقنت منه الريبة ، فإذا أسأت به الظن ولم تستيقن منه الريبة قلت أرابنى منه فهو مريب . ﴿ **فذروها** ﴾ : اتركوها . ﴿ **فعقروها** ﴾ : قتلوها . ﴿ **الصيحة** ﴾ :

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الحاقة .

المرة الواحدة من الصوت الشديد المراد بها الصاعقة التى أحدثت رجفة فى القلوب ، وصعق بها الكافرون . ﴿ **جاثمين** ﴾ : ساقطين على وجوههم مصعوقين ، والجثوم للطائر كالبروك للبعير . ﴿ **يَغْنَوْا** ﴾ : يقال غنى بالمكان أقام به .

قوله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا** ﴾ :

أى ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، وثمود هم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم أخاهم صالحا ، فأمرهم بعبادة الله وحده .

قال تعالى : ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره** ﴾ :

والتوحيد هو أصل الرسالات السماوية . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾(٢) .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، والتوحيد هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالاً ، وكل الرسالات التى بُعث بها الرسل كان هدفها توحيد العقائد ، لا تفريق القواعد .

وكل الأنبياء بُعثوا بالإسلام ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(٣) ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٤) .

ولما أمرهم صالح بعبادة الله وحده ، أقام الدليل على وحدانيته جلَّ شأنه فقال : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ أى ابتدأ خلقكم منها . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ أى جعلكم تعمرونها ، وقد جاء ذلك المعنى مفصلا فى قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٩ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(٥) الآيات ٥ - ٧ من سورة الحج .

وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فى ما ها هنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم .وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **فاستغفروه ثم توبوا إليه** ﴾ أى اسألوه المغفرة من ذنوب سلفت ، وتوبوا إليه فيما سيأتى ، إن ربى قريب مجيب ، قال رجل لرسول الله : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه . فنزل قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾[٢] .

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعبُ
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقربُ

قوله تعالى : ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مَرجُوًّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مُريب** ﴾ :

أى قد كنت فينا موضع رجاء ، نستشيرك فى عظائم الأمور لما لك من عقل راجح ، ولب مستنير ، أما وقد أمرتنا بما أمرتنا من ترك ما كان يعبد آباؤنا ، فقد أوقعتنا فى شك مفسد ، وظن مريب ، ينافى الطمأنينة ، ومثل هذا ما جاء فى قوله تعالى فى قصة هود : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[٣] .

وهذه دعوى أهل الباطل فى كل زمان ومكان ، جدال وإنكار للحق ، وكبر وصلف ، وطيش وحمق وسفه ، قال تعالى : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير** ﴾ .

لقد جاء صالح يفيض حلما ورشدا وحكمة وجلالا : يا قوم ، هكذا بلغة المشفق الناصح الأمين : أخبرونى إن كنت على بينة وبرهان قاطع ودليل ساطع فيما أدعوكم إليه من التوحيد ، وعقيدة الحق والدين الصحيح ، وآتانى الله منه رحمة فجعلنى نبيا ، فمن ذا الذى يمنع عنى عذاب الله إن عصيته وخالفت أمره ، وكتمت دعوته ، فما تزيدوننى بأقوالكم هذه إلا خسرانا مبينا ومعاذ الله أن أكون من الجاهلين الخاسرين .

قوله جل شأنه ﴿ **ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ :

(١) الآيات ١٤١ - ١٤٩ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٧٠ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٥ من سورة غافر .

كانت الناقة معجزة وآية لصالح عندما طلبوا منه ذلك ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾[١] .

وفى سورة هود أمهلهم صالح ثلاثة أيام بعد عقرها . قال تعالى : ﴿ **فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ :

ذلك لأنه وعد من الله ، لقد خالفوا أمر الله فذبحوا الناقة ، قال تعالى فى سورة القمر : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾[٢] .

وقال جل شأنه فى سورة الشمس : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوَّاها * ولا يخاف عقباها ﴾[٣] .

وفى سورة فصلت يقول تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٤] .

وهكذا كان العذاب : صيحة أعقبتها صاعقة ، فكان الهلاك .

قال تعالى : ﴿ **فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا** ﴾ ، كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾[٥] .

﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** ﴾ أى صيحة الصاعقة ﴿ **فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** ﴾ على وجوههم كأن لم يكونوا مقيمين بها قبل ذلك ، ﴿ **ألا إن ثمود كفروا ربهم** ﴾ وجحدوه ﴿ **ألا بعدا** ﴾ وهلاكا ولعنا ﴿ **لثمود** ﴾ .

أما صالح بعد هلاكهم فقد تولى عنهم ، وقال هذه العبارة التى تسيل لها الكبد مرارة والنفس لوعة وجوى ﴿ **يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ .

إنها قمة المأساة ، وإن شئت فقل إنها قمة الملهاة ، أن الناس لا يحبون الناصحين .

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتى والنصح أغلى ما يُباع ويُوهبُ

---

(١) الآيات ١٥٣ - ١٥٩ من سورة الشعراء .
(٢) الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة القمر .
(٣) الآيات ١١ - ١٥ من سورة الشمس .
(٤) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة فصلت .
(٥) الآية ١٠٣ من سورة يونس .

## إبراهيم والبشرى

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

**المفردات** : ﴿ **فما لبث** ﴾ : أى ما أبطأ . ﴿ **وحنيذ** ﴾ : أى مشوى بالرضف وهى الحجارة المحماة . ﴿ **ولا تصل إليه** ﴾ : أى لا تمتد للتناول . ﴿ **ونكره وأنكره** ﴾ : ضد عرفه ﴿ **وأوجس القلب فزعا** ﴾ : أحسَّ به ﴿ **ولوط** ﴾ : هو ذلك النبى الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم وأول من آمن به . ﴿ **وياويلتا** ﴾ : أصلها يا ويلى : وهى كلمة تقال حين يفاجأ الإنسان أمر مهم من بلية أو فجيعة أو فضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، ﴿ **والبعل** ﴾ : الزوج وجمعه بعولة ﴿ **وأمر الله** ﴾ : قدرته وحكمته ﴿ **وحميد** ﴾ : أى تحمد أفعاله . ﴿ **ومجيد** ﴾ : أى كثير الخير والإحسان . ﴿ **الروع** ﴾ : ( بالفتح ) الخوف والفزع ( وبالضم ) النفس . ﴿ **والحليم** ﴾ : الذى لا يحب المعاجلة بعقاب ، ﴿ **والأواه** ﴾ : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، ﴿ **والمنيب** ﴾ : الذى يرجع إلى الله فى كل أمر ﴿ **وغير مردود** ﴾ : أى غير مدفوع ، لا بجدال ولا بشفاعة .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام** ﴾ :

وهؤلاء هم الضيف المكرمون ، الذين ورد ذكرهم فى سورة الذاريات فى قوله جل شأنه : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم *

فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾[١] .

وهؤلاء الرسل من الملائكة المكرمين ، جاءوا ليزفوا البشرى إلى إبراهيم بمولد غلام له هو إسحاق ، كما بشروه بأن إسحاق سيعيش حتى يولد له يعقوب ، وقد جاءت هذه البشرى فى حال عجيبة ، فقد كانت سارة عاقرا وكان إبراهيم شيخا كبيرا .

ولما جاءت الملائكة إبراهيم قالوا سلاما ، فرد عليهم التحية قائلا : سلام ، وكان رد التحية بأحسن منها ، ذلك لأنه رد بالرفع ﴿ سلام ﴾ أى تحيتى سلام ، وهى جملة إسمية تدل على الثبوت والاستقرار ، كما يقول علماء البيان ، وكان خليل الرحمن مضيافا كريما ، فما أبطأ فى تقديم القرى وإكرام الضيف ، لقد جاءهم بعجل سمين قد شواه حتى يكون أطيب لحما ، وأحب إلى النفس .

قال تعالى : ﴿ **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ لكنه فوجىء بهم لا يمدون أيديهم إليه .فأنكر حالهم . ولم يعرفهم ، وأحس منهم خيفة ، ولم يكن ذلك امتناعا منهم ، إنما تلك طبيعتهم التى جبلها الله عليهم فإن الملائكة المكرمين لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، بل يسبحون الله بالليل والنهار لا يفترون ، فالتسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يوصفون بذكورة أو أنوثة ﴿ بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٢] .

قال تعالى : ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾ .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾[٣] .

فماذا حدث بعد هذا ؟

قال تعالى : ﴿ **وامرأته قائمة فضحكت** ﴾ عجبا لحال هؤلاء الذين يمتنعون عن تناول هذا اللحم الطيب .

وهنا جاءت البشرى من الملائكة ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ .

فما أجمل أن يبشر الإنسان بغلام له عقب .

---

(١) الآيات ٢٤ - ٣٠ من سورة الذاريات .

(٢) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة العنكبوت .

• فماذا قالت سارة ؟ قالت : ﴿ **ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب** ﴾ .

وهذه الكلمة : ﴿ **ياويلتا** ﴾ تقال للتعجب من أمر مفاجىء ، فقد عجبت على أى حال ستلد وهى العجوز ، وقد بلغ زوجها سن الشيخوخة التى يبست فيها العظام ، واشتعل الرأس شيبا ، وأكدت هذا القول بقولها : ﴿ **إن هذا لشىء عجيب** ﴾ .

لذا جاء الرد من الملائكة : ﴿ **أتعجبين من أمر الله** ﴾ والأمر هنا أمر تقدير وإرادة نافذة . ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾(١) فزكريا عندما قال : ﴿ أنَّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾(٢) .

جاء الجواب : ﴿ كذلك قال ربك هو علىَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾(٣) .

ومريم عندما قالت : ﴿ أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ﴾(٤) كان الجواب : ﴿ كذلك قال ربك هو علىَّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ﴾ .

ثم قالت الملائكة : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ .

ثم ماذا بعد البشرى ؟ لقد ذهب عن إبراهيم الروع والخوف الذى اعتراه ، فإذا هو يجادل فى قوم لوط ، وقد جاءت صورة تلك المجادلة فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾(٥) الآية .

وقد وصف الله تعالى خليله إبراهيم بقوله : ﴿ **إن إبراهيم لحليم أوَّاه منيب** ﴾ والحلم صفة من أجلّ الصفات ، إذ هو الصبر عند الغضب ، وإن شدة الجهالة لا تزيد الحليم إلا حلما . جاء فى الحديث الشريف ﴿ كاد الحليم أن يكون نبيا ﴾ كما وصفه تعالى بأنه ﴿ **أواه** ﴾ أى كثير التأوه والتوجع لما يثير ويؤلم ، فهو صاحب القلب السليم والوجدان اليقظ ، ذو قلب منيب ، يرجع دائما إلى الله .

ثم يأتى القول الفصل فى شأن قوم لوط فيقول تعالى : ﴿ **يا إبراهيم أعرض عن هذا** ﴾ أى عن الجدال فى قوم لوط ﴿ **إنه قد جاء أمر ربك** ﴾ أى هكذا قضى الله فى شأنهم ، ولا راد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، وهو سريع الحساب ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود أى لا مرد له من الله ، مالهم من الله من عاصم ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾(٦) .

فسبحان من بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يُجار عليه ، علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، علم فحكم ، وحكم فعدل ، وأراد فنفذت إرادته ، وقال فصدق ، وأمر فأرشد ، ونهى فوجَّه ، هو الأول فلا شىء قبله ، والآخر فلا

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٢) الآية ٨ من سورة مريم .
(٣) الآية ٩ من سورة مريم .
(٤) الآية ٢٠ من سورة مريم .
(٥) الآية ٣١ من سورة العنكبوت .
(٦) الآية ١١ من سورة الرعد .

شيء بعده ، الظاهر فلا شيء فوقه ، الباطن فلا شيء دونه ، وهو بكل شيء عليم ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾[1] .

## قصة لوط عليه السلام

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

**المفردات** : ﴿ **سيء بهم** ﴾ : أى وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم . ﴿ **الذرع والذراع** ﴾ : منتهى الطاقة يقال مالى به ذرع ولا ذراع : أى مالى به طاقة . ويقال : ضقت بالأمر ذرعا إذا صعب عليك احتماله . ﴿ **والعصيب** ﴾ : الشديد الأذى ، ﴿ **ويقال هُرِع وأهرع** ﴾ : ( بالبناء للمجهول ) : إذا حُمِل على الإسراع . وقال الكسائى : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعْدة من برد أو غضب أو حمى أو شهوة . ﴿ **ولا تخزون** ﴾ : أى لا تخجلونى . ﴿ **والضيف** ﴾ : يطلق على الواحد والجمع . ﴿ **والرشيد** ﴾ : ذو الرشد والعقل . ﴿ **لو أن لى بكم قوة** ﴾ : أى على الدفع بنفسى . ﴿ **أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ : من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين . ﴿ **السرى** ﴾ : ( بالضم ) والإسراء فى الليل : كالسير بالنهار . ﴿ **والقطع من الليل** ﴾ : الطائفة منه . ﴿ **والسجيل** ﴾ : الطين المتحجر كما جاء فى الآية الأخرى ﴿ حجارة من طين ﴾[2] . وقال الراغب : هو حجر وطين مختلط أصله فارسى فعرِّب . ﴿ **ومنضود** ﴾ : أى وضع بعضه على بعض وأعد لعذابهم ، ﴿ **ومسومة** ﴾ : أى لها سومة ( بالضم ) أو علاقة خاصة فى علم ربك .

وعلى جناح السرعة انتقلت الملائكة الكرام من بيت إبراهيم الخليل إلى بيت ابن أخيه لوط وكان قد

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣٣ من سورة الذاريات .

ابتُلى بقوم وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾[١] .

إن الملائكة لما نزلت على لوط سيء بهم ، أى استاء لمجيئهم ، فقد نزلوا بين قوم ضاعت بينهم القيم ، واهتزت المعايير ، واختلت موازين المثل ، فأصبح المعروف بينهم منكرا ، والمنكر معروفا ، كما صار الذئب عندهم راعيا ، وأضحى الخصم العنيد بينهم قاضيا .

من أجل هذا خشى لوط عليهم من هؤلاء القوم الغلاظ الأكباد ، الجفاة الطباع ، القساة القلوب ، وضاق بهم ذرعا وطاقة ، فإنهم ضيف وللضيف واجب عند الكرام ، فكيف يؤدى واجب الضيافة بين هؤلاء الأوغاد الأنذال ، لقد وصف يوم مجيئهم لديه بأنه يوم عصيب وشديد .

وما أن استقر الضيف المكرمون عنده حتى جاءه قومه يسرعون يراودونه عن ضيفه ، ومن قبل مجيئهم كانوا يعملون السيئات ، ويأتون المنكرات ، وهنا بلغ السيل الزبى ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، قال لوط : ﴿ **يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم** ﴾يقصد بنات قومه ، فكل نبى فى قومه كالوالد الرحيم ، فاتقوا الله واحذروا عقوبته ، ولا تخزون ولا تفضحون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ، أى ذو رشد وعقل ينهاكم عما تفعلون .

وبكل صفاقة وخلاعة ، **قالوا** له : ﴿ **لقد علمت مالنا فى بناتك من حق** ﴾ أى أنهم لا يأتون النساء ، إنما يأتون الذكران من العالمين ، وإنك لتعلم ما نريد .

قال لهم نبى الله لوط ﴿ **لو أن لى بكم قوة** ﴾ أى ليتنى أملك من القوة ، ما أستطيع أن أدفعكم بها ، أو آوى إلى ركن شديد ، أو قوم ذى عصبية ، أستطيع بهم أن أكف بأسكم وأدفع شركم .

وإذا بالملائكة الكرام تقول له : ﴿ **يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾

وهذا كقوله جلَّ شأنه : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾[٢] .

ولقد نفذ لوط تعليمات ربه فأسرى بأهله ليلا . وما أن جاء الصبح حتى قامت الملائكة بشن الغارة التى دمرتهم ، وقال الله فيها : ﴿والمؤتفكةأهوى فغشَّاها ما غشَّى ﴾[٣] وقال فيها : ﴿ وإن لوطا لمن

---

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة العنكبوت .

(٣) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة النجم .

المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين * ثم دمّرنا الآخرين * وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾[١] .

وقال : ﴿ ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾[٢] .

وقال : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾[٣] .

وقال : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابى ونذر ﴾[٤] .

وقال هنا فى سورة هود : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها** ﴾ : ذلك لأنهم غيروا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق الله لهم من أزواجهم.

﴿ **وأمطرنا عليها** ﴾ : أى على تلك القرى حجارة من سجيل منضود ، وهو الطين المتحجر الذى تتابع حتى قضى عليهم قضاء مبرما ، هذه الحجارة كانت مسومة عند ربك ( أى معلمة ) ، ما أخطأت واحدة منها صاحبها الذى سيموت بها ، وليس هذا الانتقام مقصورا على قوم لوط ، إنما هو ممتد حتى يصل إلى كل ظالم وطاغية .

قال تعالى : ﴿ **وماهى من الظالمين ببعيد** ﴾ : إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[٥] .

وهكذا أرخى الستار على تلك المأساة البشرية ، التى انحرفت عن طريق الجادّة ، فصاروا عن الصراط ناكبين . ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[٦] .

## قصة شعيب عليه السلام

* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى

(١) الآيات ١٣٣ – ١٣٨ من سورة الصافات .
(٢) الآية ٧٤ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٤٠ من سورة الفرقان .
(٤) الآيات ٣٧ – ٣٩ من سورة القمر .
(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٦) الآية ٦٣ من سورة النور .

ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾
قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا
مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ
مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ
لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟
يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ
ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

**المفردات** : ﴿ **بخير** ﴾ : بثروة وسعة فى الرزق . ﴿ **تبخسوا** ﴾ : تنقصوا الأشياء أو تعيبوها . ﴿ **تعثوا** ﴾ : تفسدوا والمراد لا تفسدوا فى الأرض قاصدين الفساد . ﴿ **الحليم** ﴾ : ذو الأناة والتروى الذى لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته . ﴿ **والرشيد** ﴾ : الذى لايأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد . ﴿ **والمخالفة** ﴾ : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى قوله أو فعله أو حاله ، يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولٍ عنه ، وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصد له . ﴿ **وأناب إلى الله** ﴾ : رجع اليه . ﴿ **وجرم الذنب أو المال** ﴾ : كسبه . ﴿ **ورحيم** ﴾ : عظيم الرحمة للمستغفرين . ﴿ **ودود** ﴾ : كثير اللطف والإحسان إليهم . ﴿ **الفقه** ﴾ : الفهم الدقيق المؤثر فى النفس الباعث على العمل . ﴿ **والرهط** ﴾ : الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة . ﴿ **لرجمناك** ﴾ : لقتلناك

بالرمى بالحجارة . ﴿ **بعزيز** ﴾ : أى ذى عزة ومنعة . ﴿ **واتخذه ظهريا** ﴾ ( بالكسر والتشديد ) أى جعله نسيا منسيا لا يذكر كأنه غير موجود . ﴿ **ومحيط** ﴾ : أى محص ما تعملون . ﴿ **وعلى مكانتكم** ﴾ : على غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال مكُن مكانه : إذا تمكن أبلغ تمكن . ﴿ **وارتقبوا** ﴾ : أى وانتظروا . ﴿ **والصيحة** ﴾ : أى صيحة العذاب . ﴿ **وجاثمين** ﴾ : أى باركين على ركبهم مُكبيّن على وجوههم . ﴿ **وغنى بالمكان** ﴾ : أقام به . ﴿ **وبعدا** ﴾ : أى هلاكا لهم .

وأرسلنا إلى قبيلة مدين ، وكانت تسكن الحجاز مما يلى الشام ، وكانوا فى غنى وسعة ، إلا أنهم طففوا الكيل ونقصوا الوزن ، وعاثوا فى الأرض الفساد ، أرسلنا لهم شعيبا من أوسطهم نسباً ، وأعلاهم خلقا ، قال لهم : يا قومى ويا أهلى ( وهذا مما يدعو إلى الإجابة والقبول ) اعبدوا الله وحده ، لا تشركوا به شيئاً ، مالكم إله غيره يتصف بما اتصف به الله جل شأنه حتى يعبد .

ألست معى فى أن الرسل جميعا متفقون فى طلب عبادة الله وحده ، أما الأمور العملية فكل يعالج ناحية الضعف فى أمته ، ولذا قال شعيب : يا قومى اعبدوا الله ولا تنقصوا الكيل والميزان فيما تبيعون ، وكانوا ﴿ إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أى ينقصون ﴿ أنهم مبعوثون ﴾[1] ومحاسبون .

امتثلوا الأمر ، واجتنبوا النهى ، لأنى أراكم بخير وعافية ، وغنى وسعة ، وهذا يدعو إلى شكر الله وامتثال أمره ، ولأنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط عذابه لكم ، إذا أنتم أصررتم على العصيان .

﴿ **ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط** ﴾ والعدل وهذا أمر بالواجب بعد النهى عن ضده لتأكيد ، وتبنيها على أنه لا بد منهما قصدا .

﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ فى كيل أو وزن ، أو عد فى حق حسى أو معنوى ، ولا تعيبوا شيئا لا يستحق العيب ولا تفسدوا فى الأرض بأى نوع من الفساد حالة كونكم قاصدين له .

واعلموا أن ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة ، وأحمد عاقبة مما تبتغونه لأنفسكم من تطفيف فى الكيل ، أو نقص فى الوزن ، وصدق الله ﴿ **بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ ورقيب ، إن علىّ إلا البلاغ ، وعلى الله الحساب .

﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك** ﴾ تقتضى بتأثيرها فيك أن تحملنا على ترك ما كان يعبد آباؤنا من أصنام ، نتخذهم قربى إلى الله ، ولست أنت خيرا منهم حتى نتركهم ونتبعك . والاستفهام فى الآية للإنكار والسخرية بشعيب ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك** ﴾ ما نفعله فى أموالنا من تنمية واستغلال على حسب نشاطنا واجتهادنا ، أليس هذا حجرا على حريتنا ، وحدا لنشاطنا ؟

(١) الآيات ٢ - ٤ من سورة المطففين .

إنك يا شعيب لأنت الحليم ، المتأنى فى حكمه ، العاقل المتروى ، والرشيد الذى لا يأمر إلا بما استبان له فيه وجه الخير والرشاد ، وهذا التأكيد الكثير فى كلامهم يفيد الاستهزاء والتعريض به .

انظروا إلى رد شعيب عليهم فى هذه الاتهامات :

﴿ **يا قوم** ﴾ ويا أهلى أخبرونى ماذا أفعل معكم ومع نفسى ، إن كنت على يقين تام ، وحجة واضحة من ربى ، تفيد أن ما أمركم به هو من عند الله لا من عند نفسى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد رزقنى من فضله وخيره رزقا حسنا كثيرا ، حصل لى من طريق الكسب الحلال ، فأنا رجل مليء ، وخبير بما ينمى المال .

أخبرونى ماذا أفعل ؟ وماذا أقول لكم غير الذى قلت ؟

﴿ **وما أريد أن أخالفكم** ﴾ مائلا إلى ما نهيتكم عنه ، بل أنا متمسك به قبلكم ، لأنى أرى فيه الخير والرشاد فى الدنيا والآخرة ، وأنا ما أريد إلا الإصلاح والخير العام لى ولكم ما استطعت ، إلى ذلك سبيلا ، ليس لى فيما أفعل غرض خاص .

ومن هنا نأخذ أن العاقل يجب أن يكون عمله مراعى فيه حق الله ورسوله ، وحق نفسه ، وحق الناس عليه .

﴿ **وما توفيقى** ﴾ وهدايتى إلى الخير إلا بالله وحده ، عليه توكلت وإليه أنيب ، إذ هو المرجع والمآب ، والنافع والضار ، لا أرجو منكم خيرا ، ولا أخاف ضرا .

ويا قوم لا يحملنكم شقاق وخلافى معكم فى الرأى والعقيدة على العمل الضار ، الذى يترتب عليه أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح بالغرق ، أو قوم هود بالريح العاتية ، أو قوم صالح بالصيحة الطاغية ، وما عذابُ قوم لوط منكم ببعيد ، زمانا ولا مكانا ولا إجراما .

﴿ **واستغفروا ربكم** ﴾ من ذنوبكم ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ واعملوا صالحا من الأعمال ، إن ربى وربكم عظيم الرحمة ، كثير المودة ، فإنكم إن فعلتم ذلك يمتعكم متاعا حسناً فى الدنيا والآخرة .

قالوا يا شعيب : ما نفهم كثيرا مما تقول فهما عميقا ، ولا نفهم له معنى ولا حكمة ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، لا حول لك ولا قوة ، فكيف يقبل منك هذا الذى يوصلك إلى الرياسة فى الدين والدنيا ، على أنا لو أردنا البطش بك لما منعنا مانع ، ولولا عشيرتك الأقربون لفتكنا بك فتكاً يتناسب مع عملك معنا ، ومن ذم آلهتنا ، وطلبك الحجر علينا فى تصرفنا ، أى نقتلك رميا بالحجارة ، ﴿**وما أنت علينا بعزيز** ﴾ .

﴿ **قال يا قومى أرهطى** ﴾ وأسرتى أعز وأكرم عليكم من الله الذى أدعوكم اليه ، وأشركتم به ،

وجعلتم مراقبته والخوف منه وأمره ونهيه وراءكم ظهريا ، كالأمر الذى يهون على صاحبه فينساه ولا يحسب له حسابا ﴿ **إن ربى بما تعملون محيط** ﴾ علماً فسيجازيكم على عملكم .

ويا قوم اعملوا ما استطعتم على منتهى يمكنكم فى قوتكم ، إنى عامل على مكانتى وحالتى ، وغدا سوف تعلمون الذى يأتيه عذاب يخزيه ويذله فى الدنيا والآخرة ، ومن هو كاذب فى قوله ﴿ لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾[1] .

وانتظروا مراقبين من سيقع عليه العذاب ، إنى معكم من المنتظرين ، وهذا الأمر ﴿ اعملوا وارتقبوا ﴾ للتهديد والوعيد من واثق بقوته وبربه .

﴿ **ولما جاء أمرنا** ﴾ وحانت ساعة التنفيذ ﴿ **نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة** ﴾ خاصة بهم وما ذلك على الله بعزيز ﴿ **وأخذت الذين ظلموا الصيحة** ﴾ التى أخذت ثمود فأصبحوا جاثمين ، وجوههم منكبة على الأرض كالطير الجاثمة ، وأصبحت ديارهم خاوية على عروشها ، كأنهم لم يقيموا فيها وقتا من الأوقات ، ألا بعدا وهلاكا لمدين كما بعدت وهلكت ثمود .

## موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

**المفردات** : ﴿ **سلطان مبين** ﴾ : المراد حجة قوية ظاهرة ، وقيل هى العصا . ﴿ **يقدم** ﴾ : أى يتقدم يقول قدمهم يقدمهم إذا تقدمهم . ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ : أدخلهم فيها . ﴿ **الرفد المرفود** ﴾ : المراد بئس العطاء المعطى لهم وقيل الرفد القدح والرفد مافى القدح من الشرب ، والمراد بئس ما يسقونه فى النار عندما يردونها .

﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ التسع المفصلة فى غير هذه السورة ، وأرسلناه بحجة قوية كقوة السلطان ، ظاهرة لا غموض فيها ، وهى محاورته مع فرعون ، وقيل هى عصاه ، أرسلناه إلى فرعون وملئه وهم أشراف قومه ، وقادة شعبه ، ومستشاروه فى الرأى ، وأما بقية الشعب فتابع لهم ، وسائر وراءهم بدون تفكير ، فاتبع الأشراف أمر فرعون ، ونفذوه حرفيا فى الكفر بموسى ، وإحضار السحرة ، وقتلهم لمن آمنوا ، وما أمر فرعون برشيد أبداً ، بل هو الغواية والضلال ، والشر والفساد .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الأعراف .

وهذا فرعون كبير قومه وقائدهم إلى الشر فى الدنيا ، يتقدمهم يوم القيامة إلى النار ، فيدخلون فيها جميعا ، وبئس الورد المورود الذى دخلوه وهو جهنم ، وذلك لأن وارد الماء يرده للتبريد ، ولذة الشرب ، ووارد النار يحترق بلهيبها ويتلظى بنارها .

﴿ **وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة** ﴾ هم من المقبوحين ، ويوم القيامة يسقون ماء حميما يقطع الأمعاء ، مع اللعنة عليهم فى الدنيا والآخرة ، وبئس هذا العطاء المعطى لهم ، جزاء ما قدموا من سيء الأعمال .

## العبرة والعظة من القصص بعذاب الدنيا

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

**المفردات** : ﴿ **تتبيب** ﴾ : مأخوذ من التباب أى الخسران والهلاك يقال تب فلان وتبت يده ، أى خسر وهلك .

ذلك الذى ذكرنا بعض أنباء القرى التى ظلمت نفسها ، وعصيت رسلها ، نقصه عليك للعبرة والعظة ، ولمعان أخر ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه من القرى ماله بقايا آثار باقية ، كالزرع القائم ، ومنها ما عفى ودرس حتى لم يعد له أثر كالزرع المحصود ، وما ظلمناهم فى شيء أبدا ، بل أرسلنا لهم الرسل لهدايتهم وتنوير بصائرهم ، ولكنهم ظلموا وبغوا وما ازدادوا إلا فجورا وضلالا ، أنذرتهم رسلهم بالعذاب فتماروا بالنذر ، واتكلوا على آلهتهم فى دفع العذاب عنهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم شيئا لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير هلاك وضلال ، فإنهم باتكالهم عليهم إزدادوا كفرا وإصرارا ، وظلما وضلالا .

ومثل ذلك الأخذ بالعذاب والنكال أخذ ربك إذا أخذ القرى فى حال تلبسها بالظلم فى كل زمان ومكان ، إن أخذه أليم شديد موجع قاس ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، فهل من مدّكر .

يا كفار قريش : لستم بأقوى منهم ، وأشد بأسا ، وليس رسولكم بأقل من إخوانه الرسل : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

(١) الآية ٩ من سورة الروم .

## العبرة العامة فى هذا القصص بعذاب الآخرة

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

**المفردات** : ﴿ **شقى** ﴾ : الشقى من استحق النار لإساءته . ﴿ **سعيد** ﴾ : من استحق الجنة لعمله بعد فضل الله ورحمته . ﴿ **الزفير** ﴾ : إخراج النفَس . ﴿ **الشهيق** ﴾ : رده مع السرعة والجهد . ﴿ **مجذوذ** ﴾ : مقطوع مأخوذ من جذه يجذه إذا قطعه أو كسره .

قوله تعالى ﴿ **إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود** ﴾ :

يخبر تعالى بأن فى إهلاكنا الكافرين ، وإنجائنا المؤمنين ، لآية أى عظة واعتباراً على صدق موعودنا فى الآخرة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس** ﴾ أى أولهم وآخرهم ، كقوله : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾[٣] .

﴿ **وذلك يوم مشهود** ﴾ أى عظيم ، تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، إن تك حسنة نضاعفها .

وقوله ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ أى ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة .

---

(١) الآية ٥١ من سورة غافر . (٢) الآية ١٣ من سورة إبراهيم . (٣) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

ولهذا قال ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ : أى لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها .

﴿ **يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ : أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله ، كقوله : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾(١) وقال ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾(٢) .

وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة : ( ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم )(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ أى فمن أهل الجمع شقى ، ومنهم سعيد ، كما قال : ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾(٤) .

عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ سألت النبى ﷺ فقلت يارسول الله: علام نعمل ؟ على شىء قد فرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه ؟ فقال : ( على شىء قد فرغ منه ياعمر وجرت به الأقلام ولكن كل ميسر لما خلق له )(٥) .

ثم بيّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال :

﴿ **فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد** ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ **لهم فيها زفير وشهيق** ﴾ قال ابن عباس : الزفير فى الحلق ، والشهيق فى الصدر ، أى تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، عياذا بالله من ذلك .

﴿ **خالدين فيها مادامت السموات والأرض** ﴾ : قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب ، إذا أرادت أن تصف الشىء بالدوام أبدا ، قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون هو باق ، ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كله أبداً . فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال : ﴿ **خالدين فيها مادامت السموات والأرض** ﴾ .

وعن ابن عباس قوله : ﴿ **مادامت السموات والأرض** ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : مادامت الأرض أرضا ، والسماء سماء .

(١) الآية ٣٨ من سورة النبأ . (٢) الآية ١٠٨ من سورة طه .

(٣) أخرجه البخارى فى الأذان (١٢٩) وفى التوحيد (٢٤) . ومسلم فى الايمان (٢٩٩) .

(٤) الآية ٧ من سورة الشورى .

(٥) أخرجه البخارى فى التفسير ( سورة : ٩٢ : ٧ ) وفى القدر (٢) وفى التوحيد (٥٤) . ومسلم فى القدر (٧ ، ٩) . وأبو داود فى السنة(١٦) . والترمذى فى القدر (٣) . وابن ماجه فى المقدمة (١٠) وفى التجارات (٢) . والإمام أحمد فى (١ : ٦) وفى ( ٤ : ٤٢٧ ، ٤٣١ ) .

وقوله ﴿ **إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد** ﴾ كقوله : ﴿ **النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم** ﴾[١] .

وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء ، على أقوال كثيرة ، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه ( زاد المسير ) وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله فى كتابه .

وعن ابن عباس والحسن أيضا : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعوا فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : ( لا إله إلا الله ) كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك ، من حديث أنس وجابر وأبى سعيد وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا فى تفسير هذه الآية الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ **وأما الذين سُعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ **ففى الجنة** ﴾ أى فمأواهم الجنة ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أى ما كثين فيها أبدا ﴿ **ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ .

معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فله المنة عليهم دائما ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس .

وقال الضحاك والحسن البصرى : هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار ، ثم أخرجوا منها ، وعقب ذلك بقوله ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ أى غير مقطوع قاله مجاهد ، وابن عباس ، وغير واحد ، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شىء ، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار فى النار دائما مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم .

ولهذا قال : ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ كما قال ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾[٢] .

وهنا طيب القلوب . وثبت المقصود بقوله : ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾

وقد جاز فى الصحيحين : [ يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ] [٣] .

وفى الصحيح أيضا ﴿ فيقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٥٠) وفى التفسير ( سورة ١٩ : ١ ) . ومسلم فى الجنة (٤٠) . والترمذى فى الجنة (٢٠) . والدرامى فى الرقاق (٩٠) . والامام أحمد فى ( ٢ : ١١٨ ) وفى ( ٣ : ٩ ، ٣٣٠ ) .

تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ﴾[١] .

## توجيهات وإرشادات

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنة (٢٢) . والترمذى فى التفسير ( سورة ٣٩ : ١٠ ) والدرامى فى الرقاق (١٠٣) . والامام أحمد فى (٢ : ٣١٩) وفى (٣ : ٣٨ ، ٩٥) .

**المفردات** : ﴿ **طرف الشيء** ﴾ : الطائفة منه والنهاية . ﴿ **فطرفا النهار** ﴾ : الغدو والعشى وروى عن الحسن وقتادة والضحاك : أنهما صلاة الصبح والعصر . ﴿ **والزلف** ﴾ : واحدها زلفة وهى الطائفة من أول الليل لقربها من النهار وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء . ﴿ **وذكرى** ﴾ : عبرة وعظة . ﴿ **للذاكرين** ﴾ : أى المعتبرين المتعظين . ﴿ **لولا** ﴾ : كلمة تفيد التخصيص والحث على الفعل . ﴿ **القرون** ﴾ : واحدهم قرن وهو الجيل من الناس قيل هو ثمانون سنة وقيل سبعون سنة وشاع تقديره بمائة سنة . ﴿ **والبقية** ﴾ : ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره واستعمل كثيرا فى الأنفع والأصلح لأن العادة قد جرت بأن الناس ينفقون أردأ ما عندهم ، ويستبقون الأجود ، ويقال أترفته النعمة ، أى أبطرته وأفسدته . ﴿ **وكلمة ربك** ﴾ : أى قضاؤه وأمره . ﴿ **القصّ** ﴾ : تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾[1] .

﴿ **والنبأ** ﴾ : الخبر الهام . ﴿ **ونثبت** ﴾ : أى نقوّى ونجعل فؤادك راسخا كالجبل . ﴿ **على مكانتكم** ﴾ : أى على تمكنكم واستطاعتكم .

قوله تعالى : ﴿ **فلاتَكُ فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص** ﴾ :

أى فلاتك فى شك مما يعبد هؤلاء المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أى ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء ، فيعذبهم عذابا أليما لا يعذبه أحداً ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة .

قال سفيان الثورى : عن جابر الجعفى عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص** ﴾ قال : ما وعدوا من خير أو شر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص .

ثم قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾ .

يذكر سبحانه وتعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم** ﴾

قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم ، لقضى الله بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال تعالى :

(١) الآية ١١ من سورة القصص .

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[١] فإنه قد قال فى الآية الأخرى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون ﴾[٢]. ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين و الآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

فقال : ﴿ **وإنّ كلا لمَّا ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير** ﴾ .

أى عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها . وفى هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا المعنى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير** ﴾ :

يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ، ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان وهو البغى ، فإنه مصرعه ، حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون** ﴾ :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لا تداهنوا .

وقال العوفى عن ابن عباس : هو الركون إلى الشرك .

وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم .

وقال ابن جرير عن ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا . وهذا القول حسن ، أى لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ **فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** ﴾ أى ليس لكم من دون الله من ولى ينقذكم ، ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

قوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلَفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ قال : يعنى الصبح والمغرب . ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم : يعنى صلاة العشاء .

وقوله ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثا فنفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه وإذا حدثنى عنه أحد أستحلفته فإذا

(١) الآية ١٥ من سورة الأسراء . (٢) الآية ١٢٩ من سورة طه . (٣) الآية ٣٢ من سورة يس .

حلف لى صدقته ، وحدثنـى أبو بكر-وصدق أبوبكر – أ نه سمع رسول الله ﷺ يقول:( ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر له )[١] .

وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان : أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال : ( من توضأ وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه )[٢] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء فى إناء – أظنه سيكون فيه قدر فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا ثم قال ( من توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات )[٣] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا غمرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يارسول الله قال ( كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا )[٤] .

وقال مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول :( الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر )[٥] .

وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب الأنصارى عن رسول الله ﷺ كان يقول : ( إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة ) .

وقال أبو جعفر بن جرير عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ ( جعلت الصلوات كفارات لما بينهن ) فإن الله قال ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الوتر (٢٦) . والترمذى فى الصلاة (١٨١) وفى التفسير ( سورة ٣ : ١٤ ) . وابن ماجه فى الإقامة (١٩٣) . والامام أحمد فى ( ١ : ٢ ، ٩ ، ١٠ ) .

(٢) أخرجه البخارى فى الوضوء ( ٢٤ ، ٢٨ ) وفى الصوم (٢٧) . ومسلم فى الطهارة ( ٣ ، ٤ ) . وأبو داود فى الطهارة (٥١) . والنسائى فى الطهارة (٢٧ ، ٦٨ ، ٩٣) .

(٣) أخرجه الأمام أحمد فى (٣ : ٤٩٥) .

(٤) أخرجه البخارى فى المواقيت (٦) . ومسلم فى المساجد (٢٨٣ ، ٢٨٤ ) . والترمذى فى الأدب (٨٠) . والنسائى فى الصلاة (٧) . وابن ماجه فى الأقامة (١٩٣) . والدرامى فى الصلاة (١) . والإمام مالك فى السفر (٩١) . والإمام أحمد فى (١ : ٧٢ ، ١٧٧) وفى (٢ : ٣٧٩ ، ٤٢٧ ، ٤٤١ ) .

(٥) أخرجه مسلم فى الطهارة (١٦) . والامام أحمد فى (٢ : ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤) .

وقال البخارى عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ فقال الرجل : يارسول الله ألى هذا ؟ قال : ( لجميع أمتى كلهم ) هكذارواه فى كتاب الصلاة .

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنى وجدت امرأة فى بستان ففعلت بها كل شىء غير أنى لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك . فافعل بى ما شئت ، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئا فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه . فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال ( ردوه على ) فردوه عليه فقرأ عليه ﴿ **أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ فقال معاذ وفى رواية عمر يارسول الله آله وحده أم للناس كافة ؟ فقال ( بل للناس كافة ) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ( إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قال : قلنا : وما بوائقه يانبى الله ؟ قال ( غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السىء بالسىء ، ولكن يمحو السىء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث )[1] .

وقال ابن جرير : كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار فقال : يا رسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أنى لم أواقعها ، فلم يدر رسول الله ما يجيبه ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ فدعاه رسول الله فقرأها عليه .

وعن معـاذ بن جبل أنه كان قاعدا عند النبى ﷺ فجاء رجل فقال : يارسول الله ما تقول فى رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبى ﷺ ( توضأ وضوءا حسنا ثم قم فصل ) فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعنى قوله ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ فقال معاذ : أهى له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : ( بل للمسلمين عامة ) .

وقال ابن جرير عن سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول : إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال يارسول الله أقم فىّ حد الله ( مرة أو اثنتين ) فأعرض عنه رسول الله ثم أقيمت الصلاة ،فما فرغ النبى ﷺ من الصلاة قال : ( أين هذا الرجل القائل أقم فىّ حدّ الله ) قال أنا ذاقال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً ؟ قال : نعم ، قال : ( فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد ) وأنزل الله على رسول الله ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ .

(١) أخرجه الامام أحمد فى ( : ٣٨٧ ) .

وقال الإمام أحمد بن على بن زيد عن أبى عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسى تحت شجرة ، فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : أبا عثمان ألا تسألنى لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟ قال : هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال : ( إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق )[١] وقال : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ .

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب عن ميمون بن أبى شبيب عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال ( اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ﴾[٢] .

وقال أحمد عن أبى ذر قال قلت يارسول الله أوصنى ، قال ( إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها ) قال قلت يارسول الله : أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال هى أفضل الحسنات ) .

وقال الحافظ الموصلى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ ( ما قال عبد لا إله إلا الله فى ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما فى الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات ) .

قوله تعالى : ﴿ **واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ .

الصبر هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح ، كما أنه ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات ، لئلا يتردى فى الرذائل ، وقد يكون الصبر نفسياً ومادياً ، وقد جعل الله ثواب الصابرين بغير حساب فقال ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٣] .

ولمّا قال إخوة يوسف له : ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[٤] .

فبالتقوى والصبر انتقل يوسف من غيابة الجب إلى غاية الحب ، ومن النوم على الحصيرة إلى التربع على عرش مصر .

وبالتقوى والصبر قال له إخوته : ﴿ لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾[٥] وبالتقوى والصبر قال لهم ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾[٦] وبالتقوى والصبر قال يوسف بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[٧] .

فاللهم إنا نسألك صبرا عند البلاء ، وشكرا عند الرخاء ، ورضا بمر القضاء .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ( ٤ : ٧٠ ) وفى ( ٥ : ٤٣٧ ، ٤٣٩ ) . والدرامى فى الوضوء (٤٥) .

(٢) أخرجه الترمذى فى البر (٥٥) . والدرامى فى الرقاق (٤٧) . والامام أحمد فى (٣ : ٥) وى ( ٥ : ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ) .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٩٠ من سورة يوسف .

(٥) الآية ٩١ من سورة يوسف .

(٦) الآية ٩٢ من سورة يوسف .

(٧) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

قوله تعالى : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين** ﴾ .

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض ، وقوله : ﴿ **إلا قليلا** ﴾ أى قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

كما قال تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[١] .

وفى الحديث : ( إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب ﴾[٢] .

ولهذا قال تعالى ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه** ﴾ : أى استمروا على ما هم عليه من المعاصى والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ .

يخبر الله تعالى بأنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾[٣] وقال : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٤] .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمَّر ، وهل يبيد المجتمعات إلا الظلم ، قال تعالى ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمةفهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[٥] ، ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[٦] ، ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٧] ، ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٨] ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[٩] .

---

(١) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .
(٢) أخرجه الامام أحمد فى ( ١ : ٥ ، ٧ ) .
(٣) الآية ١٠١ من سورة هود .
(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٦) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٧) الآية ٥٩ من سورة القصص .
(٨) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٩) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة الذى يقول فى حديثه القدسى الجليل : ( ياعبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا )[١] .

وسبحان القائل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[٢] . وجل جناب الحق إذ يقول ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٣] ، ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس أمة واحدة من إيمان أو كفر ، كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون مختلفين*إلا من رحم ربك** ﴾ :

أى ولا يزال الخُلْف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم .

وقوله : ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ : أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبى وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه وآزروه ، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضا : ( إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة وأن النصارى افترقت على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين شعبة كلها فى النار إلا فرقة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : ( ما أنا عليه وأصحابى )[٦] . رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة .

وقال عطاء : ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس . ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ يعنى الحنيفية . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

وعن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثرا ، فقال طاوس : اختلفتما وأكثرتما . فقال أحد الرجلين : لذلك خُلقنا . فقال طاوس : كذبت . فقال : أليس الله يقول ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾ قال : لم يخلقهم ليختلفوا ، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة . وكما قال

(١) **الآية ١٠١ من سورة هود**
(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٤) أخرجه أبو داود فى السنة (١) . والدرامى فى السير (٧٤) .
(٥) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٦) الآية ٩٩ من سورة يونس .

ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول ، إلى قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ .

يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ( اختصمت الجنة والنار . فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم . وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء . وقال للنار : أنت عذابى أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فصل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه ، فتقول : قط قط وعزتك )[٢]

قوله تعالى ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾ .

يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وخذل أعداءه الكافرين ، وكل هذا مما نثبّت به فؤادك ، أى قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : ﴿ **وجاءك فى هذه الحق** ﴾ : أى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ :

يقول الله تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ **اعملوا**

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٥) . والأمام أحمد فى (٢ : ٥٠٧) .

**على مكانتكم** ﴾ أى على طريقتكم ومنهجكم ، ﴿ **إنا عاملون** ﴾ أى على طريقتنا ومنهجنا ﴿ **وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ أى ﴿ فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾[١] .

وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

قوله تعالى : ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ :

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه ، وقوله﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ أى ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين ، سبحانه أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا .

فاللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . اعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا .

اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ، يا نعم المولى ويا نعم النصير ، سبحانك ربنا وإليك المصير ، وصلى الله على البشير النذير .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة القصص .

# سورة يوسف

## مقدمة

قال صاحب البصائر : هذه السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة ، وكلماتها ألف وسبعمائة وست وسبعون ، وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وستون .

وسميت بسورة يوسف لاشتمالها على قصته .

**مقصود السورة إجمالا** : عرض العجائب التى تتضمنها : من حديث يوسف ويعقوب ، والوقائع التى فى هذه القصة ، من تعبير الرؤيا ، وحسد الأخوة ، وحيلهم فى التفريق بينه وبين أبيه ، وتفصيل الصبر الجميل من جهة يعقوب ، وبيع الأخوة أخاهم بثمن بخس ، وعرضه على البيع والشراء ، بسوق مصر ، ورغبة زليخا وعزيز مصر فى شرائه ، ونظر زليخا إلى يوسف ، واحتراز يوسف منها ، وحديث رؤية البرهان وشهادة الشاهد ، وتعيير النسوة زليخا ، وتحيرهنَّ فى حسن يوسف ، وجماله ، وحبسه فى السجن ، ودخول الساقى والطباخ إليه ، وسؤالهما إيَّاه ودعوته إياه إلى التوحيد ونجاة الساقى ، وهلاك الطباخ ، ووصية يوسف للساقى بأن يذكره عند ربه ، وحديث رؤيا مالك بن الريان ، وعجز العابرين عن عبارته ، وتذكر الساقى يوسف ، وتعبيره لرؤياه فى السجن ، وطلب مالك يوسف ، وإخراجه من السجن ، وتسليم مقاليد الخزائن إليه .

ومقدم إخوته لطلب الميرة ، وعهد يعقوب مع أولاده ، ووصيتهم فى كيفية الدخول إلى مصر ، وقاعدة تعريف يوسف نفسه لبناميين ، وقضائه حاجة الإخوة وتغييبه الصاع فى أحمالهم ، وتوقيف بنيامين بعلة السرقة ، واستدعائهم منه توقيف غيره من الإخوة مكانه ، ورده الإخوة إلى أبيهم ، وشكوى يعقوب من جور الهجران ، وألم الفراق ، وإرسال يعقوب إياهم فى طلب يوسف وأخيه ، وتضرع الإخوة بين يدى يوسف ، وإظهار يوسف لهم ما فعلوه معه من الإساءة وعفوه عنهم ، وإرساله بقميصه صحبتهم إلى يعقوب ، وتوجه يعقوب من كنعان إلى مصر ، وحوالة يوسف ذنب إخوته على مكايد الشيطان ، وشكره لله تعالى على ما خوّله من الملك ، ودعائه وسؤاله حسن الخاتمة ، وجميل العاقبة ، وطلب السعادة ، والشهادة ، وتعيير الكفار على الأعراض من الحجّة .

والإشارة إلى قصة يوسف عبرة للعالمين فى قوله ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ إلى آخر السورة .

## المتشابهات

قوله : ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ ليس فى القرآن غيره . أى عليم : علّمك تأويل الأحاديث ، حكيم : اجتباك للرسالة .

قوله : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ﴾ فى موضعين ، وليس بتكرار : لأنه

ذكر الأول حين نُعِى إليه يوسف ، والثانى حين رفع إليه ما جرى على بنيامين .

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ ومثلها فى القصص وزاد فيها ﴿ واستوى ﴾ ، لأن يوسف عليه السلام أوحى إليه وهو فى البئر ، وموسى عليه السلام أوحى إليه بعد أربعين سنة ، وقوله ﴿ واستوى ﴾ إشارة إلى تلك الزيادة .

ومثله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ بعد قوله : ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ معاذ الله ﴾ هنا فى موضعين ، وليس بتكرار ، لأن الأول ذكره حين دعته إلى المواقعة ، والثانى حين دعى إلى تغيير حكم السرقة .

قوله : ﴿ قلن حاش لله ﴾ فى موضعين : أحدهما فى حضرة يوسف حين نفين عنه البشرية بزعمهن ، والثانى بظهر الغيب حين نفين عنه السوءَ .

قوله : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ فى موضعين : ليس بتكرار ، لأن الأول من كلام صاحبى السجن ليوسف ، والثانى من كلام إخوته له .

قوله : ﴿ يا صاحبى السجن ﴾ فى موضعين: الأول ذكره يوسف حين عدل عن جوابهما اللأ دعائهما إلى الإيمان ، والثانى حين عاد إلى تعبير رؤياهما ، تنبيها على أن الكلام الأول قد تم .

قوله : ﴿ **لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون** ﴾ كرر ( لعل ) مراعاة لفواصل الآى ، ولو جاء على مقتضى الكلام لقال لعلنى أرجع إلى الناس فيعلموا ، بحذف النون على الجواب ، ومثله فى هذه السورة سواء قوله : ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ أى لعلهم يعرفونها فيرجعوا .

قوله : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ فى موضعين : الأول حكاية عن تجهيزه إياهم أول ما دخلوا عليه ، والثانى حين أرادوا الانصراف من عنده في المرة الثانية ، وذكر الأول بالواو ، لأنه أول قصصهم معه ، والثانى بالفاء ، عطفا على ( ولما دخلوا ) وتعقيبا له .

قوله : ﴿ تالله ﴾ فى ثلاثة مواضع : الأول يمين منهم أنهم ليسوا سارقين ، وأن أهل مصر بذلك عالمون ، والثانى يمين منهم أنك لو واظبت على هذا الحزن والجزع تصير حرضا ، أو تكون من الهالكين ، والثالث يمين منهم أن الله فضله عليهم ، وأنهم كانوا خاطئين .

قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ وفى الأنبياء ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ بغير ( من ) لأن ( قبل ) اسم للزمان السابق على ما أضيف إليه ، و( من ) يفيد استيعاب الطرفين ، وما فى هذه السورة للاستيعاب . وقد يقع ( قبل ) على بعض ما تقدم كما فى الأنبياء ، وهو قوله : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾[1] ثم وقع عقبه ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾[1] فحذف ( من ) لأنه هو بعينه .

(١) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الأنبياء .

قوله ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض ﴾ بالفاء . وفى الروم ، والملائكة بالواو ، لأن الفاء يدل على الاتصال والعطف ، والواو يدل على العطف المجرد . وفى هذه السورة قد اتصلت بالأول كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا ﴾[1] .
حال من كذبهم ومانزل بهم ، وليس كذلك فى الروم والملائكة .

قوله : ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ بالإضافة ، وفى الأعراف ﴿ والدار الآخرة خير ﴾[2] على الصفة ، لأن هنا تقدم ذكر الساعة ، فصار التقدير : ولدار الساعة الآخرة ، فحذف الموصوف ، وفى الأعراف تقدم قوله : ﴿ عرض هذا الأدنى ﴾[3] أى المنزل الأدنى ، فجعله وصفا للمنزل ، والدار الدنيا والدار الآخرة بمعناه ، فأجرى مجراه .

قال الشيخ المراغى رحمه الله تعالى فى تفسيره لسورة يوسف : رأينا أن نقدم لك أيها القارىء صورة موجزة تبين لك حال هذا النبى الكريم والعبرة من ذكر قصته فى القرآن العظيم ، لتكون ذكرى للذاكرين ، وسلوة للقارئين والسامعين .

## يوسف الصديق : مثل كامل فى عفته

يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر ، تتلى فى صحائف الكون بكرة وعشيا ، تفسر طيب نجاره وطهارة إزاره ، وعفته فى شبابه وقوته فى دينه ، وإيثاره لآخرته على دنياه ، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المثل العليا فى العفة والصيانة التى لا تتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ، ومراقبته له فى السر والعلن .

وسورته منقبة عظمى له ، وآية بينة فى إثبات عصمته ، وأفضل مثل عملى يقتدى به النساء والرجال ، فبتلاوتها يشعر القارىء بما للشهوة الخسيسة على النفس من سلطان . ويسمع بأذنه تغلب الفضيلة فى المؤمن على كل رزيلة . بقوة الإرادة ، ونوازع الشرف والعصمة ، ففيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء .

فيها قصة شاب كان من أجمل الناس صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان وهى سيدة له وهو عبدها ، يحملها الافتتان بجماله على أن تُذِل نفسها له ، وتخون بعلها فتراوده عن نفسه ( وقد جرت العادة حتى فى الطبقات الدنيا منزلة وتربية أن يكون النساء مطلوبات لا طالبات ) فيسعها من حكمته ، ويريها من كماله وعفته ما هو أفضل درس فى الإيمان بالله ، والاعتصام بحبله المتين ، وفى حفظه أمانة سيده الذى أحسن مثواه ، فيقول ﴿ إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ فتشعر حينئذ بالذل والمهانة والتفريط فى الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة .

إلا أن فيها أعظم دليل على صبره وحلمه ، وأمانته وعدله ، وحكمته وعلمه ، وعفوه وإحسانه ، فكفى شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقوه فى غيابة الجب ، وأخرجته السيارة وباعوه بيع العبيد ، وكادت له امرأة العزيز فزُج به فى السجن ، فصبر على أذى الإخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة ، إذ

(١) الآية ١٠٩ من سورة يوسف . (٢) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف .

علم ما فى الفاحشة من مفاسد وما فى العدل والإحسان من منافع ومصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم .

وكانت العاقبة أن نجاه الله ورفع قدره ، وأذل العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة ، والنسوة ببراءته ، ومكن له فى الأرض وكانت عاقبته النصر ، والملك والحكم ، والعاقبة للمتقين . قال سبحانه ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته ، فقد ظهرت جليا حين تولى الحكم فى مصر أيام السبع سنين العجاف التى أكلت الحرث والنسل ، وكادت توقع البلاد فى المجاعات ، ثم الهلاك المحقق ، لولا حكمته وعدله بين الناس ، والسير بينهم بالسوية . وعلى الصراط المستقيم بلا جنف ، ولا ميل مع الهوى .

## ما فى قصة يوسف من عبرة

إن فى هذه القصة لعبرة أيما عبرة لعلية القوم وساداتهم ، رجالهم ونسائهم ، مُجّانهم وأعفائهم ، من نساء ورجال ، فإن امرأة العزيز لم تكن من قبل غوية ، ولا كانت فى سيرتها غير عادية ، لكنها ابتُليت بحب هذا الشاب الفاتن الذى وضعه عزيز مصر فى قصره ، وخلى بينه وبين أهله ، فأذلت نفسها له ، بمراودته عن نفسه ، فاستعصم وأبى وآثر مرضاة ربه ، فشاع فى مصر ، دورها وقصورها وذلها له، وإباؤه عليها ، كما قال سبحانه ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ .

وقد ذكرنها بالوصف « امرأة العزيز » دون الاسم منها استعظاما لهذا الأمر منها ، ولا سيما وأن زوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها ، وقد طلبت الفاحشة من مملوكها ، وفتاها الذى هو فى بيتها وتحت كنفها ، وذلك أقبح لوقوعها منها ، وهى السيدة ، وهو المملوك ، وهو التابع وهى المتبوعة ، وقد جرت العادة بأن نفوس النسوة تعزف عن مثل هذه الدناءة ، ولا ترضى لنفسها بهذه الذلة التى تشعر بالمساواة لا بالسيادة ، وبالضعة لا بالعظمة ، ولله فى خلقه شئون .

وقد تضمن وصف النسوة لها بهذا الوصف أنها لم تقتصد فى حبها ، ولا فى طلبها .

أما الأولى : فقولهن فيها ﴿ قد شغفها حبا ﴾ أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ( الغشاء المحيط به ) وغاص فى سويدائه ، كما قال شاعرهم :

يعلم الله أن حبك منى فى سواد الفؤاد وسط الشغاف

وأما الثانى فقولهن : « تراود فتاها عن نفسه » .

فلما سمعت بهذا المكر القولى ، قابلتهن عليه بمكر فعلى ، فقد جمعتهن وأخرجه عليهن ، فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة ، فراعهن ذلك الحسن الفتان ، وفى أيديهن مُدى يقطعن بها مما يأكلنه ، فقطعن أيديهن وهن لا يشعرن بما فعلن ، مأخوذات بذلك الحسن . كما جاء فى قوله سبحانه

﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هتك سترها ، وكاشفت النسوة فى أمرها ، وتواطأن معها على كيدها ، آثر عليه السلام الاعتقال فى السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخنا ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ .

وإنه ليستبين من هذا القصص أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير ، تصرفه كيف شاءت ، وشاء لها الهوى ، إذ كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس ، عبيد الشهوات .

قال فى الكشاف عند ذكر ما رأوا من الشواهد الدالة على براءته : وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها . وفتلها منه فى الذروة والغارب ، وكان مطواعه لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته ، وطمعت فى أن يذلله السجن ، ويسخر لها .ا.هـ .

وإنا لنستخلص من هذه القصة الأمور التالية :

١ - إن النقم قد تكون ذريعة لكثير من النعم ، ففى بدء القصة أحداث كلها أتراح ، أعقبتها نتائج كلها أفراح .

٢ - إن الأخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد ، ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك أو الحوائج التى تكون مصدر النكبات والمصائب .

٣ - أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها ، والشواهد فيها واضحة ، والعبرة منها ماثلة لمن اعتبر وتدبر ، ونظر بعين الناقد البصير .

٤ - إن أسسها ودعامتها هو خلوة الرجل بالمرأة فهى التى أثارت طبيعتها وأفضت بها إلى إشباع أنوثتها ، والرجوع إلى هواها وغريزتها ، ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة ، وسفرها بغير محرم ، وفى الحديث ( ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما )[١] .

وإنا لنرى فى العصر الحاضر أن الداء الدوىّ ، والفساد الخلقى ، الذى وصل إلى الغاية ( وكلنا نلمس آثاره ونشاهد بلواه ) ما بلغ إلى ما نرى إلا باختلاط الرجال بالنساء فى المراقص والملاهى والاشتراك معهم فى المفاسد والمعاصى ، كمعاقرة الخمور ، ولعب القمار فى أندية الخزى والعار ، وسباحة النساء مع الرجال فى الحمامات المشتركة .

(١) أخرجه الترمذى فى الرضاع (١٦) وفى الفتن (٧) . والإمام أحمد فى ( ١ : ١٨ ، ٢٦ ) وفى ( ٣ : ٣٣٩ ، ٤٤٦ ) .

وبعد : فهل لهذه البلوى من يفرج كربتها ، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامه ، وهل لهذه الجراح من آس وهل لهذه الفوضى من علاج . ولهذه الطامة من يقوم بحمل عبئها عن الأمة ، ويكون فيه من الشجاعة ما يجعله يرفع الصوت عاليا بالنزوع عن تلك الغواية ، ويرد أمر المجتمع ، والحرص على آدابه إلى ما قرره الدين ، وسار عليه سلف المسلمين المتقين ، فيصلح أمره ، وتزهو الفضيلة ، وتنشأ نابتة جديدة تقوم على حراسة الدين فى بلاد المسلمين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

هدانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

روى البيهقى أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها لما عندهم ، وهو من رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى ﴿ **الٓر** ﴾ هذه بعض حروف الهجاء ، ويراد بها الإشارة إلى إعجاز هذا الكتاب المبين الواضح الدلالة .

قال الله تعالى : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ وكتاب الله تعالى هو المخرج من الفتن ، لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء .

قال الإمام الشاطبى رضى الله عنه :

وخير جليس لا يمل حديثه
وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته
من القبر يلقاه سنىً متهللا
هنالك يهنيه مقيلا وروضة
ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه
وأجدر به سؤلا إليه موصلا

فيا أيها القارى به متمسكاً
مجلا له فى كل حال مبجلا
هنيئاً مريئاً والداك عليهما
ملابس أنوار من التاج والحلى

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** ﴾

ذلك لأن لغة العرب أشرف اللغات ، وقد زادها الله شرفا ورفعة بإنزال القرآن بها ، قال تعالى فى سورة الزخرف : ﴿ حم•والكتاب المبين•إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون•وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ :

عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أنزل على النبى ﷺ القرآن ، قال فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يارسول الله لو قصصت علينا ؟ ما أنزل الله عز وجل ﴿ **آلر تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ إلى قوله ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ ثم تلاه عليهم زمانا فقالوا : يارسول الله لو حدثتنا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية وذكر الحديث .

ومما يناسب ذكره عن هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ، ما رواه أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ قال : فغضب وقال : ( أمتهوّكون فيها ياابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء ، فيخبرونكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى).

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا قال : فسرى عن النبى ﷺ وقال ( والذى نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين)[٢] .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن خالد بن عرفطة قال : كنت جالسا عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم قال : وأنت النازل

(١) الآيات ١ - ٤ من سورة الزخرف .
(٢) أخرجه الامام أحمد فى ( ٤ : ٢٦٦ ) وفى ( ٣ : ٤٧١ ) .

بالسوس ؟ قال : نعم فضربه بقناة معه قال : فقال الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر اجلس فجلس فقرأ عليه :

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . آلر تلك آيات الكتاب المبين*إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص – إلى قوله – لمن الغافلين** ﴾ فقرأها عليه ثلاثا ، وضربه ثلاثا ، فقال له الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذى نسخت كتاب دانيال ؟ قال : مرنى بأمرك أتبعه . قال : انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنك عقوبة ، ثم قال : اجلس فجلس بين يديه فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به فى أديم فقال لى رسول الله ﷺ ( ما هذا فى يدك ياعمر ؟ ) قال : قلت يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد به علما إلى علمنا فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الأنصار : أغضب نبيكم ﷺ ، السلاح السلاح فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال ( يا أيها الناس إنى أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون ) قال عمر : فقمت فقلت : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبك رسولا . ثم نزل رسول الله ﷺ ) وقد رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره .

## رؤيا يوسف

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

**المفردات** : ﴿ **لأبيه** ﴾ : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم روى أحمد والبخارى أن النبى ﷺ قال ( الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ) ﴿ **أحد عشر كوكبا** ﴾ : هم إخوته ، وكانوا أحد عشر نفراً . ﴿ **الشمس والقمر** ﴾ : أبوه وأمه . ﴿ **والسجود** ﴾ : من سجد البعير إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس من تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرهما الانحناء مبالغة فى الخضوع والتعظيم وقد استعمله القرآن فى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية ، للتقرب إلى من يعتقد أن له

عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب المعهودة . ﴿ **وقص الرؤيا** ﴾ : الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة . ﴿ **وكاد له** ﴾ : إذا دبر الكيد لأجله لمضرته أو لمنفعته كما قال ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ .
﴿ **والاجتباء** ﴾ : من جبيت الشيء ( إذا حصلته لنفسك والتأويل الإخبار بما يؤول إليه الشيء فى الوجود وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها .
﴿ **والآل** ﴾ أصلها : أهل وهو خاص بمن لهم شرف وخطر فى الناس كآل النبى ﷺ وآل الملك .

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد فى قصصك عليهم من قصة يوسف ، إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام كما قال الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ( الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم )[1] رواه البخارى .

وعن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم قال ( أكرمهم عند الله أتقاهم ) قالوا ليس عن هذا نسألك قال ( فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله ) قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : ( فعن معادن العرب تسألونى ) قالوا : نعم . قال ( فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا )[2] .

وقال ابـن عباس : رؤيا الأنبياء وحى ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحـد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه .

روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثورى وقد وقع تفسيرها حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وأخوته بين يديه ﴿ وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾ :

ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكرهه فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لن تضره )[3] .

وقال رسول الله ﷺ ( الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر فاذا عبرت وقعت )[4] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٩) وفى المناقب (١٣) وفى التفسير ( سورة ١٢ : ١ ) . والترمذى فى التفسير ( سورة ١٢ : ١ ) . والأمام أحمد فى ( ٢ : ٩٦ ، ٣٣٢ ، ٤١٦ ) .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء ( ٨ ، ١٤ ، ١٩ ) وفى المناقب ( ١ ، ٢٥ ) وفى التفسير ( سورة ١٢ : ١ ) . ومسلم فى الفضائل (١٦٨) . والامام أحمد فى (٤ : ١٠١) .

(٣) أخرجه مسلم فى الرؤيا (٤) . والدرامى فى الرؤيا (٥) . والامام أحمد فى (٣ : ٨) وفى ( ٥ : ٣٠٣ ) .

(٤) أخرجه الأمام أحمد فى (٤ : ١٠ ، ١١) . وابن ماجه فى الرؤيا (٦) . والدرامى فى الرؤيا (١١) .

ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد فى حديث ( استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فإن كل ذى نعمة محسود ) .

وما قال يعقوب لابنه يوسف : لا تقصص رؤياك على إخوتك إلا حرصا عليه منهم ، وذلك خشية الحسد فيكيدون له كيدا ، ويحتالون عليه احتيالا ، حتى يوقعوه فى مالا تحمد عقباه ، وذلك بما يوحيه الشيطان إليهم ، وبما يوسوسه لهم ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين، أعاذنا الله تعالى من شره .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم** ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، ﴿ **كذلك يجتبيك ربك** ﴾ أى يختارك ويصطفيك لنبوته ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، قال مجاهد : يعنى الرؤيا ، ويتم نعمته عليك أى بإرسالك والإيحاء إليك . ولهذا قال ﴿ **كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم** ﴾ أى هو أعلم حيث يجعل رسالته ، كما قال فى الآية الأخرى .

## التآمر على يوسف

* لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا

فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

**المفردات** : ﴿ **الناصح** ﴾ المشفق المحب للخير . ﴿ **الرتع** ﴾ : الاتساع فى الملاذ والمراد باللعب لعب المسابقة والانتصال بالهام ونحوهما ، مما يتدرب به لمقابلة الأعداء ، وتعليم فنون الحرب . ﴿ **والحزن** ﴾ : ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه . ﴿ **والخوف** ﴾ : "والخوف" ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه . ﴿ **والعصبة** ﴾ : الجماعة التى تعصب بها الأمور وتكفى بآرائها الخطوب . ﴿ **وخاسرون** ﴾ : ضعفاء عاجزون أو هالكون لا غناء عندهم ولا نفع . ﴿ **أجمعوا** ﴾ : أى عزموا عزما لا تردد فيه . ﴿ **وأوحينا إليه** ﴾ : أى ألهمناه كما فى قوله تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾[1] . ﴿ **والعشاء** ﴾ : من الغروب إلى العتمة : أى حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار . ﴿ **والاستباق** ﴾ : تكلف السبق فى العدو أو فى الرمى . ﴿ **والمتاع** ﴾ : فضل الثياب وماعون الطعام والشراب . ﴿ **ومؤمن** ﴾ : أى مصدق . ﴿ **وسولت** ﴾ : زينت وسهلت . ﴿ **والصبر الجميل** ﴾ : ما لا شكوى فيه إلى الخلق . ﴿ **على ما تصفون** ﴾ : أى من هذه المصيبة وعظيم الرزء .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذا المشهد :

يقول تعالى : لقد كان فى قصة يوسف وخبره مع أخوته آيات ، أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك ، المستخبرين عنه ، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا** ﴾ أى حلفوا فيما يظنون ، والله ليوسف وأخوه يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ، ﴿ **أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة** ﴾ أى جماعة فكيف ، أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿ **إن أبانا لفى ضلال مبين** ﴾ يعنون فى تقديمهما علينا ، ومحبته إياهما أكثر منا .

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهرهذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنه أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر ، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط** ﴾[2] .

وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم ، والله أعلم .

﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم** ﴾ يقولون هذا الذى يزاحمكم فى محبة

---

(١) الآية ٧ من سورة القصص (٢) الآية ١٣٦ من سورة البقرة .

أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم ، ليخلوا لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه أو تلقوه فى أرض من الأراضى تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿ **وتكونوا من بعده قوما صالحين** ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب .

﴿ **قال قائل منهم** ﴾ قال قتادة ، ومحمد بن إسحق : وكان أكبرهم واسمه روبيل . وقال السدى : الذى قال ذلك يهوذا ، وقال مجاهد : هو شمعون الصفا .

﴿ **لا تقتلوا يوسف** ﴾ أى لا تصلوا فى عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمرا لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر ، والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه ، وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب وهو أسفله .

قال قتاده : وهى بئر ببيت المقدس ﴿ **يلتقطه بعض السيارة** ﴾ أى المارة من المسافرين ، فتستريحوا منه بهذا ، ولا حاجة إلى قتله ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾ أى إن كنتم عازمين على ما تقولون .

قال محمد بن إسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل ، وخطره عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه ، مع مكانه من الله ، ممن أحبه طفلا صغيرا وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه ، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمرا عظيما . رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه .

﴿ **قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ۝ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون** ﴾ :

لما تواطأوا على أخذه وطرحه فى البئر، كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل ، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام ، فقالوا : مابالك ﴿ **لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون** ﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿ **أرسله معنا** ﴾ أى ابعثه معنا ﴿ **غدا نرتع ونلعب** ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ( يرتع ويلعب ) قال ابن عباس : يسعى وينشط ، وكذا قال قتادة ، والضحاك ، والسدى ، وغيرهم ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ يقولون ونحن نحفظه ، ونحوطه من أجلك .

﴿ **قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون** ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء ﴿ **إنى ليحزننى أن تذهبوا به** ﴾ أى يشق على مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة ، والكمال فى الخلق والخلق ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون** ﴾ : يقول وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الجملة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه .

وقالوا مجيبين له عنها فى الساعة الراهنة : ﴿ **لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون** ﴾ .

يقولون لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة ، إنا إذاً لهالكون عاجزون .

﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ :

يقول تعالى : فلما ذهب به أخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك ﴿ **وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب** ﴾هذا فيه تعظيم لما فعلوه ، إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له ، وبسطا وشرحاً لصدره ، وإدخالا للسرور عليه ، فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له .

فذكر السدى وغيره : أنه لم يكن بين أكرامهم له ، وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه ، وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه ، فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط فى الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون فى وسطه يقال لها الراغوفة ، فقام فوقها .

وقوله : ﴿ **وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ : يقول تعالى ذاكرا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر فى حال العسر ، أنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق تطييبا لقلبه ، وتثبيتاً له ، إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع .

وقوله : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ قال مجاهد وقتادة : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ بإيماء الله إليه ، وقال ابن عباس ستنبئهم بصنيعهم هذا فى حقك ، وهم لا يعرفونك ، ولا يستشعرون بك .

قوله تعالى : ﴿ **وجاءوا أباهم عشاء يبكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين * وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون** ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن الذى اعتمده إخوة يوسف ، بعد ما ألقوه فى غيابت الجب ، إنهم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، ويتنغمون لأبيهم ، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ **إنا ذهبنا نستبق** ﴾ أى نترامى ﴿ **وتركنا يوسف عند متاعنا** ﴾ أى ثيابنا وأمتعتنا

﴿ **فأكله الذئب** ﴾ وهو الذى كان قد جزع منه وحذر عليه .

وقوله ﴿ **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾ تلطف عظيم فى تقدير ما يجادلونه ، يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت متهمنا فى ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب ، فأنت معذور فى تكذيبك لنا ، لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا .

﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ : أى مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدى وغير واحد ، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من لبسهم عليه : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل** ﴾ أى فسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ **والله المستعان على ما تصفون** ﴾ . أى على ما تذكرون من الكذب والمحال .

وقال الثورى : عن ابن عباس ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ قال : لو أكله السبع لخرق القميص ، وكذا قال الشعبى وقتادة ،وقال مجاهد : الصبر الجميل الذى لا جزع فيه .

وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حبان بن أبى حبلة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ **فصبر جميل** ﴾ فقال : ( صبر لا شكوى فيه ) .

وقال عبد الرزاق : قال الثورى عن بعض أصحابه : أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لا تحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكى نفسك .

## يوسف مع السيّارة

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

**المفردات** : ﴿ **سيارة** ﴾ : هم الجمع المسافرون كالجوالة والكشافة . ﴿ **واردهم** ﴾ : هو الرائد الذى يبحث عن الماء . ﴿ **فأدلى دلوه** ﴾ : فأرسل دلوه – إناء يستقى به من البئر . ﴿ **وأسروه** ﴾ : أخفوه . ﴿ **شروه** ﴾ : باعوه بثمن قليل .

وجاءت هذا المكان جماعة مسافرون ، روى أنهم من العرب الإسماعيليين ، فأرسلوا رائدهم يبحث عن الماء ويأتيهم به فأرسل دلوه فى البئر فتعلق به يوسف حتى خرج ، وقال يا بشرى ، احضرى فهذا غلام

وسيم الطلعة ، صبوح الوجه ، فاستبشروا به وسُرّوا ، وأخفوه عن أعين الناس ، حتى لا يعلم به أحد ، لأجل أن يكون بضاعة لهم يتاجرون فيه ويبيعونه لأهل مصر ، والله سبحانه لا يغيب عنه شيء، عليم بما يفعل هؤلاء وهؤلاء ، وباعه السيارة بثمن قليل دراهم معدودة لم تصل إلى حد الوزن ، وكانوا فيه من الزاهدين الراغبين عنه ، الذين يبتغون الخلاص منه .

## يوسف فى مصر

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

**المفردات :** ﴿ **مثواه** ﴾ : مقامه عندنا مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به . ﴿ **أشده** ﴾ : رشده وكماله .

وقال الذى اشتراه من مصر ، لم يذكر القرآن اسمه ولا صنعته ولا سكنه ، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ أو قصص، يعنى بهذه الأشياء ، بل قصصه لمعنى أعلى وأسمى ، ولا يهتم بمثل هذا ، وقد ذكرت روايات فى اسمه ووظيفته كثيرة ، والظاهر أنه كان رئيس شرطة ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز ﴾ .

قال : أكرمى مقام هذا الغلام . فلا يكن فى منزلة العبيد والأرقاء ، بل عامليه كفرد منا ، فإنى ألمح منه النبل والخلق ، وأرى أنه سيكون له شأن ، أكرميه رجاء أن ينفعنا فى أعمالنا الخاصة أو العامة أو نتخذه ولداً لنا تقرّ به أعيننا ، ونرثه ويرثنا .

يا سبحان الله !! أهكذا يكون يوسف الذى ألقى فى الجب !! وقد وقع فى قلب سيده هذا الموقع ، ولا غرابة فالله حارسه وهاديه ، وحافظه وراعيه ، ومثل ذلك التدبير والعناية بيوسف مكانه فى أرض مصر ، وكان هذا العطف من عزيزها فاتحة الخير ، وإن اعترض ذلك ، مكناه فى الأرض، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، وتعبير الرؤيا ، وهكذا إعداد الأنبياء .

﴿ **والله غالب على أمره** ﴾ ، ومنفذ ما أراده ، لا رادّ لقضائه . فكل ما وقع ليوسف من إلقائه فى الجب ، ومن استرقاقه وبيعه ، وتوصية سيده لامرأته بخصوصه ، وتعليمه الرؤيا ، وغير ذلك ، خطوات لإعداد يوسف للمحل الذى ينتظره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك .

﴿ **ولما بلغ أشده** ﴾ ، وكمل رشده ، واستوى عقله وبدنه ﴿ **آتيناه حكما** ﴾ إلهاميا فيما يعرض له من المشاكل والنوازل ، وسن الرشد هل هى ثلاثون أو أربعون ؟ .

مثل ذلك نجزى المحسنين العاملين ، خصوصا الأنبياء والمرسلين ، وقائدهم وخاتمهم محمد ﷺ .

## يوسف مع امرأة العزيز وكيف كانت محنته ؟ ودفاعه وحكم زوجها

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

**المفردات :** ﴿ **راودته** ﴾ : طلبت منه أن يواقعها طلبا بلين ورفق كالمخادعة ، يقال : راود الرجل المرأة عن نفسها وراودته عن نفسه ، والمراودة أن تنازع غيرك فى الإرادة فتريد غير ما يريد وعليه قوله : ﴿ **سنراود عنه أباه** ﴾ أى نحتال عليه ، ونخدعه عن إرادته ، ليرسل أخاه معنوا ، والمراد فى الآية تحايلت لمواقعته إياها ، ولم تجد منه قبولا . ﴿ **غلّقت** ﴾ : أحكمت إغلاق الأبواب كلها . ﴿ **هيت لك** ﴾ : هلمّ أقبل وبادر لما أقوله لك . ﴿ **برهان** ﴾ المراد تذكرة الله سبحانه وتعالى ، وما بينه من تحريم الزنا والخيانة ومراقبة الله سبحانه فى كل عمله ، وهى مرتبة الإحسان فى العمل كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ﴿ **المخلصين** ﴾ الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب . ﴿ **من قُبُل** ﴾ من قدام . ﴿ **من دُبُر** ﴾ من خلف .

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه ، أى حاولته على نفسه ، ودعته إليها ، ذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه

وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له ، وغلقت عليه الأبواب ، ودعته إلى نفسها ﴿ **وقالت هيت لك** ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، و﴿ **قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ، أى إن بعلك ربى أحسن مثواى ، أى منزلى ، وأحسن إلى ، فلا أقابله بالفاحشة فى أهله ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم .

إن الله تعالى قبل أن يحدثنا عن مشهد المراودة ، قدم لذلك بقوله : ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ .

وبهذا يكون يوسف قد أوتى الحكم والعلم ووصفه الله تعالى بالإحسان ، والإحسان كما قال النبى ﷺ : ( أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك )[1] .

فكيف بعد هذا كله يقول عاقل إن يوسف قد مال إليها ، كما مالت إليه ، إن الآية تقول ﴿ **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** ﴾ فهذه ثلاثة مواقف من جهتها : المراودة ، وهى الطلب برفق ، وإغلاق الأبواب بإحكام ، وقولها له : هيت لك أى أقبل ، أو هيئت لك أى تهيأت لك .

وقد قوبلت هذه المواقف الثلاثة بثلاثة مواقف من يوسف الكريم ، أولها : ﴿ **قال معاذ الله** ﴾ أى ألجأ إلى الله فهو الحصن الحصين ، والركن الركين ، والجناب الأعلى .

وكما قال القائل :

يارب حبك فى دمى وكيانى
نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى
أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

وكيف لا يكون ذلك كذلك والله تعالى يقول ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾[2] .

وكيف لايكون يوسف من أهل التقوى وهو الذى قال لإخوته ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وكان الموقف الثانى : قوله : ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ أى كيف أخون سيدى وهو زوجك ،

(١) أخرجه البخارى فى التفسير ( سورة : ٣١ : ٢ ) وفى الايمان (٣٧) . ومسلم فى الايمان (٥٧) . وأبو داود فىالسنة (١٦) . والترمذى فى الايمان (٤) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) . والامام أحمد فى ( ١ : ٢٧، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ) وفى ( ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ) وفى ( ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ ) .

(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة الطلاق .

وقد أكرمنى وأحسن مقامى ، وأوصاك بذلك ، وقال لك ﴿ **أكرمى مثواه** ﴾ ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، أأخونه فى أغلى شىء وهو العرض .

وكان الموقف الثالث : قوله ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ من باب إياك أعنى واسمعى ياجارة ، وفى التلميح ما يغنى عن التصريح ، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة ، فهذه ثلاثة بثلاثة وهذا منتهى الصراحة فى براءة يوسف الكريم .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ :

وفى هذه الآية زلت أقدام ، وتعثرت أقلام ، وانفلت خيال بعض الكاتبين ، ناسين أو متناسين أنهم يكتبون عن نبى كريم ، منحه الله العصمة ، وأحاطه بالعناية العليا ، والرعاية العظمى ، والعصمة هى حفظ الله تعالى خواطر الرسل وبواطنهم عن التلبس بمنهى عنه ، ولقد أردنا أن نبسط القول فى هذا المقام ، فوفقنا الله تعالى إلى هذا الكلام الجيد الذى كتبه الأستاذ ( محمد مصطفى الشاطر ) فى كتابه ( القول السيد فى حكم ترجمة القرآن المجيد ) :

قال : قاتل الله اليهود ، لقد ملأوا الدنيا افتراءات على الأنبياء عليهم السلام ، ونسبوا إليهم ما لا يجوز ولا يعقل ، وأشبعوا الجو بهذه المفتريات ، خصوصا بعد ظهور الإسلام كيدا منهم وحسداً ، وتمكنوا من إسناد بعض هذه المفتريات إلى كبار الصحابة ، مثل ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهما ، افتراء عليهما ، وبهتانا ، ليتقبلهـا العامة من المسلمين بالقبول التام . فلم يسلم الجو العلمى منها ولم تسلم كتب المفسرين منها ، إما لأنهم أخذوها عن بعض القصاص الذين يعتقدون فيهم الصلاح ، وإما لأنهم وجدوها فى بعض الكتب ، فظنوها صحيحة فى تفاسيرهم بحسن نية ، وأخذوا يتمحلون الإجابة عن بعضها بما لا يطمئن إليه قلب المؤمن .

ومن ذلك قصص سيدنا سليمان ، وسيدنا داود ، وسيدنا يوسف عليه السلام ، ولكن الذى يخلى عقله ويطهره من تلك الخزعبلات ، ثم يتوجه به إلى القرآن الكريم يتلوه بتدبر ، وحسن يقين ، يتبين له إن شاء الله تعالى وجه الصواب ناصعا .

ثم قال بشأن يوسف عليه السلام : نسب بعضهم إلى سيدنا يوسف عليه السلام أنه لما راودته امرأة العزيز عن نفسه ، مال إلى طلبها ، وكاد يفعل ، أو أنه أراد مخالطتها ، وقعد منها مقعد الرجل من المرأة ، إلا أنه انصرف عنها ، إما لأنه رأى معصما مكتوبا عليه النهى عن الزنا ، قد ظهر من بين الجدران منفردا عن الجسم ، أو لأنه رأى سقف البيت قد انفرج وظهر له وجه أبيه يعقوب ، عاضّا على إصبعه ، أو لأنه رأى صورته فى الجدار كذلك ، أو لأنه سمع نداء ينهاه عن الزنا ، فلم ينته فسمع نداء ثانيا فلم ينته ، فسمع نداء ثالثا كذلك إلى آخر تلك المفتريات التى شوهت بها محاسن التفاسير ، وليس لهذه الأقاويل — والحمد لله — فى كتب الأحاديث الصحيحة أصل ، ولا آية إشارة إليها .

ثم إن بعض المفسرين رأى أن هذه المفتريات غير معقولة ، ولا أصل لها ، فخفف منها ، واختار أن يكون لها معنى ﴿ **ولقد همت به وهم بها** ﴾ أنه مال إليها ، إلا أنه امتنع حينما رأى برهان ربه ، وأخذ يبين هذا البرهان بما يقرب من الخيالات ، ولكن تفسيره الهم بالميل المجرد يأباه الذوق العربى ، لأن الكلام يكون هكذا « مال إليها ومالت إليه » فيكون مثلهما سواء ، ويكون الحكم عليها فى هذا واحدا ، وذلك لا يجوز .

وفيه أيضا:إسناد ميله إلى الزنا ، وهذا لا يجوز فى حق الأنبياء عليهم السلام ، مهما أجابوا من أن الإنسان لا يؤاخذ على الميل ، فإن ذلك ليس شأن الأنبياء الذين هم القدوة العليا فى الأخلاق والأعمال والأقوال .

وأهل العلم يقولون فى قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾[1] أن ذلك كان فمين مضى قبلنا ، وقد نسخ ذلك بالنسبة لنا فقط ، بقوله ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾[2] .

ثم إن تفسير ( همّ ) بمعنى مال يضع الحكمة التى من أجلها اختيرت كلمة ( همّ ) دون ما يرادفها من مال أو قصد أو عزم ، وستعرف إن شاء الله تلك الحكمة ، ومن أجل ذلك فإن النفس المؤمنة لا تطمئن إلى هذه الأقاويل ، وإنما تطمئن إن شاء الله تعالى إلى ما يتلى .

إذا قرأت سورة يوسف بإمعان تبين لك أن الله سبحانه وتعالى وصفه أولا بالصفات الآتية :

(١) اجتباؤه واصطفاؤه .

(٢) تعليمه تأويل الأحاديث ، وذلك بقوله تعالى ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ .

(٣) إيماؤه إليه فى الجب ، حينما رماه إخوته ، ولجأ إلى الله تعالى قائلا بلسان حاله أو مقاله ، كما روى عنه : ( ياشاهداً غير غائب ، ويا قريبا غير بعيد ، ويا غالبا غير مغلوب ، اجعل لى من أمرى فرجا ) فآنسه الله بالوحى ، وأعلمه عاقبة أمره . قال تعالى ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

(٤) وإيتاؤه الحكم والعلم ، قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ والحكم هنا النبوة ، أو سيرة الأنبياء ، وتعضيد الأول إيماؤه إليه فى الجب .

وقوله تعالى فى حق يحيى عليه السلام : ﴿ وآتيناه الحكم صبيــاً ﴾[3] قال المفسرون :الحكم هنا النبوة ، وإلى هذا أميل :

(٥) الإحسان:وهو أفضل درجات العبادة ، وفى الحديث الإحسان ( أن تعبد الله كأنك تراه ) .

---

(١) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة . (٣) الآية ١٢ من سورة مريم .

أتظن أيها القارىء أن شخصا يؤتيه الله هذه الصفات ، يهم أو يميل إلى مخالطة امرأة أجنبية عنه ، كلا وألف كلا ، فإن الزنا أو مقدماته ممحقة للإحسان ، مجلبة للطرد والحرمان .

إن تلك النفس الطاهرة لأبعد وأنزه مما رماها به المفترون ، أو الغافلون .

ثم بعد أن ذكر الله لنا هذه الصفات لتكون قرينة قاطعة لمن يتلمس الحقائق على نزاهته ، كما كان قَدُّ قميصه من خلفه قرينة قاطعة على براءته ، قص علينا مقدار حكمته ، ومبلغ عفافه وعصمته ، ومقدار ما تحمله نظير ذلك من الخروج من نعيم القصر إلى ضيق السجن .

فقال تعالى ﴿ **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** ﴾ قبل التكلم فى تفسيرها أقول : إن للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما قال الغزالى وغيره أربع درجات مرتّبة: الأولى-التعريف والتنبيه ، والثانية-النصح بالحسنى ، والثالثة - التخشين فى القول ، والرابعة - المنع بالقوة والقهر .

ولقد سار يوسف عليه السلام فى هذه الحادثة على تلك القاعدة تماما ، طلبت منه امرأة العزيز ما تطلبه المرأة من الرجل ، وغلقت الأبواب حتى يكونا بمأمن من اطلاع الغير ، ولتحمله على إجابتها ولو كرها ، والتعبير بالمراودة ، وغلق الأبواب ، يشعران بتكرار الطلب وتكرار الامتناع ، وقالت هيت لك ، أى هلم إلى ما أريد ، وتهيأت لك ، وتزينت لأجلك ، فأجب طلبى .

فقال : ﴿ **معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ .

تلك ثلاث جمل قد جمعت كل ما يستوجب الاعتصام ، والبعد عن هذا المنكر فعلا وإرادة وميلا ، بل كل واحدة منها كافية فى العصمة فما بالك كلها .

سيدة فى بيتها وفى قومها ، غنية بثروتها ، بديعة فى حسنها ، ذات قدرة وسلطان ، وأمر مطاع ، قد غلقت على شاب الأبواب ، وتهيأت له كما تتهيأ المرأة لزوجها أو أكثر ، ثم دعته إلى نفسها ، وألحت ، وفى مخالفتها الانتقام والكيد العظيم ، وفى طاعتها وفرة المال ، والتمتع بلذات الحياة كما يشاء ، كل هذه المرغبات والمحاولات لو أحاطت بغير ذلك الطاهر النقى الذى اصطفاه الله لزلزلته ، ولكنها أحاطت بمن آتاه الله الحكم والعلم ، ومن ولد فى بيت النبوة وترعرع فيه ، ومن بلغ درجة الإحسان ، فبماذا قابلها ؟

قابلها بتلك الجمل الحكيمة الخالدة التى ينبغى أن تتخذ أصولا وقواعد يبنى عليها علماء الأديان والأخلاق فروعا لا حصر لها . ألا وهى ﴿ **معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ أى ألتجىء إلى الله ، وأعتصم به ، من أن آتى هذا المنكر ، وأخون زوجك الذى ربانى ، وأحسن إقامتى ، إننى إن فعلت ذلك أكن ممن يقابلون الإحسان بالإساءة ، والتربية بالخيانة ، والنعمة بالكفران ، وهذا ظلم ، ووضع للشىء فى غير موضعه ، وعاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح .

فالرب هنا - الذى رباه وهو سيد البيت كما فسره فى الكشاف ، والنيسابورى ، وغيرهما ، والضمير فى ( إنه ) للشأن .

ثم إن لهذه الجمل القيمة دلالات تبعية ، لا يبعد أن تكون مرادة له فى قوله ﴿ **معاذ الله** ﴾ تنبيها لها إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الخوف من غضبه بسبب الإقدام على هذا المنكر ، لعلها تتذكر وتخشع ، فترجع عن غيها ، قال تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾[١] أى تذكر الله أكبر فى النهى عنهما من الصلاة ، وهذه هى الدرجة الأولى من درجات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأشار بقوله ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ إلى أنه لا يليق بها أن تخون زوجها الذى رباها بنعمه وخيراته وأحسن مقامها ، وغمرها بإحسانه ، وهذه هى الدرجة الثانية .

وأشار بقوله ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ إلى أنها إن أقدمت على هذا المنكر كانت ظالمة لنفسها ولبعلها ، وإن عاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح ، لعلها تتعظ خصوصا أن واعظها هو فتاها ذلك الشاب ، وهذه هى الدرجة الثالثة.

بعد هذه النصائح الغالية والتوبيخ والتأنيب من طريق التعريض ، لم ترتدع عن غيها بل أعماها شيطان الحب ، وأصمها ، فهمت به ليأتيها رغما وكرها ، وهذا ما سنشرحه فى الآية الثانية .

قال تعالى ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ :

أربع جمل ، والوقف تام عند قوله تعالى ﴿ **وهم بها** ﴾ وكذلك عند قوله ﴿ **برهان ربه** ﴾ وإنك لتشعر بجمال هذه الجمل ، إذا قرأتها كما بينت لك ، مع فهم المعنى الذى ستسمعه .

الهمّ . هنا هو الشروع فى تنفيذ ما توطنت النفس عليه من خير أو شر ، وما امتلأت به ، ولا بد أن يكون معه أمارة دالة على ذلك ، وسواء قلنا إن الهم هو العزم والقصد ، أو الشروع فى التنفيذ ، فلابد أن يكون معه أمارة دالة عليه ، وإذا تتبعت تعبيرات القرآن الكريم وجدت أن هذا الشرط لازم ، مثال ذلك قوله تعالى ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾[٢] أى شرعوا فى إخراجه ، وظهرت الأمارة الدالة على ذلك وهو التشاور ، والتكلم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾[٣] أى شرعوا وظهرت الأمارة الدالة على ذلك ، وهو رفع السيف ( فعلا ) على رسول الله ﷺ على أحد الرأيين .

وقوله تعالى ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾[٤] أى شرعت مع ظهور الأمارات ، وهو تكلم بعضهم ، وترددهم فى أول الأمر .

ويقال هم بالقيام إذا شرع فيه ، وبدرت فيه بوادر تدل عليه ، ويقال فلان مهموم إذا ملأه الحزن ، فظهرت على وجهه أماراته ، ومنه الهم مضن لأنه يؤثر على الجسم فيذبله ، ويقال أهمه الأمر إذا أقلقه ، أى ظهر عليه القلق والاضطراب ، واهتم فلان بالأمر إذا ظهرت منه أمارات تدل على اهتمامه .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ١٣ من سورة التوبة .
(٣) الآية ١١ من سورة المائدة .
(٤) الآية ١٢٢ من سورة آل عمران .

وحينئذ يكون معنى ( همت به وهم بها ) أى شرع كل منهما فى تنفيذ ما توطنت عليه نفسهما ، أو ما عزما عليه ، مع ظهور أمارت من كل منهما تدل على ذلك ، ثم إن عزم النفس تابع لما تنفعل به من خير أو شر ، أو عقيدة أو رغبة أو رهبة إلى غير ذلك ، فإذا انفعلت النفس بما لابسها وجد منها العزم الذى يلائم هذا الانفعال ، فشرعت فى تنفيذه وإيجاده ، هذا أمر لا يحتاج إلى توضيح .

فلننظر إذاً فى نفس كل منهما لنعرف نتيجة انفعالها .

أما نفس امرأة العزيز فملأى بحب المخالطة ، شغوفة به ، فهى منفعلة بذلك .

وأما نفس يوسف فملأى بالعفاف ، والطهارة والنفرة من هذا الأمر ، فهى منفعلة بذلك ، فحملها انفعالها وهياجها على شروعها فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات دالة على ذلك ، وحمله انفعاله على شروعه فى منعها بالقوة ، بما ظهر منه من أمارات دالة على ذلك ، وهذه هى الدرجة الرابعة للنهى عن المنكر .

لقد أجمل الله تعالى لنا ما هم به كل منهما ، وتركه لفطنة القارئ ، إلا أنه أشار إليه فى نفس الآية بقوله ﴿ **لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ لئلا تزل قدم مؤمن فى هذا المنزلق الخطير ، أى أنه هم بإساءتها ، وهمت هى بحمله على الفحشاء بما ظهر من كل منهما من أمارات ، والدليل على ظهور أمارة منه قولها بعد ذلك ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ فإن الإرادة أمر نفس لا تعلمه امرأة العزيز إلا إذا ظهر لها أمارة دالة على ذلك ، كرفع يده مثلا ، أو تهديدها بالسوء .

وحينئذ يكون معنى قوله تعالى ﴿ **ولقد همت به وهم بها** ﴾ أنها شرعت فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات ، وشرع هو فى تنفيذ منعها بما يسوءها بما بدرت منه من أمارات .

ولو كان همه كما يقول المفسرون الميل إلى المخالطة لما كان هناك فائدة من ذكر كلمة السوء فى قوله ﴿ **لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ ولكان كافيا أن يقال لنصرف عنه الفحشاء ، فكلمة السوء تدل على همه ، وكلمة الفحشاء تدل على همها .

ومما يؤيد ذلك أيضا أنها قالت لزوجها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ ولم تقل مخالطة ، والسوء فى لغة العرب والقرآن غير الفحشاء .

ومما يؤيد ذلك أيضا شهادة امرأة العزيز حيث تقول : ﴿ لقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ فإنه ليس هناك كلمة أبلغ فى الدلالة على نهاية العصمة وشدتها بجميع أنواعها من هذه الكلمة البالغة ، فدل كل ذلك على أن تفسير الهم بما يقولونه غير مقبول .

ثم قال تعالى : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ :

الرب هنا سيد البيت أى مربيه ، وهو المشار إليه سابقا فى قوله: ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ وقد استعمل الرب فى هذا المعنى كثيرا فى هذه السورة ، ومن ذلك قوله ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ﴾ الآية .

والبرهان العلامة والبيان – أى لولا أن رأى علامة ربه ، أى علامة حضوره ومجيئه ، وإنما قلنا علامة حضوره ، لأن الله أشار إلى ذلك بقوله ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ فكان ذلك قرينة قاطعة على أن المراد العلامة الدالة على حضوره ، وأننا لا نعرف هذه العلامة على وجه التحقيق ، وإنما الذى نعرفه أن لقدوم الأمراء إلى بيوتهم علامات تدل عليه ، وقد تكون تلك العلامة رفع راية مثلا ، أو وجود شخص يعدو أمامه كالسايس مثلا ، ويختلف ذلك باختلاف عادات الأمم ، واختلاف العصور ، وربما تظهر لنا الآثار تلك العلامة على التحقيق .

وجواب ( لولا ) محذوف أى لولا أن رأى العلامة الدالة على حضور سيدها ، لنفذ ( فعلا ) ما أراده ، أى لساءها فعلا . ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ أى الأمر كان كذلك ، أو قدرنا ما قدرناه كما قصصناه عليك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء ، فقدرنا حضور صاحب البيت فى هذا الوقت لنصرف عنه السوء لو نفذ ما أراده ( فعلا ) فإن إساءة المرأة خصوصا امرأة العزيز ليست بالأمر الهين ، بل تقوم لها الأمة وتقعد ، ويذاق بسببها ألوان العذاب ، وكذلك قدرنا عصمته فعصمناه لنصرف عنه الفحشاء فإنه لا عصمة إلا بنا ومنا .

﴿ **إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ أى فعلنا به هذا ، ونجيناه من السوء والفحشاء ، لأنه من عبادنا الذين أخلصناهم واصطفيناهم من الخلق ، أو أخلصوا لنا فى عبادتنا وأحسنوا .

ثم قال تعالى : ﴿ **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾ .

لما رأى يوسف عليه السلام برهان ربه عدل عن تنفيذ ما أراده من السوء ، وأسرع نحو الباب ليتخلص من هذا الموقف الدقيق ، والنزاع العنيد ، فظنت امرأة العزيز أنه يريد الفرار منها ، فأسرعت وراءه لتمنعه وجذبته من قميصه ، ليعود إليها فقدته من خلفه ، وهنا ألفيا سيدها لدى الباب .

قد يقول قائل إذا كان هو قد رأى علامة حضور صاحب البيت فلم ترها امرأته ؟ قلنا : ليس بلازم ، خصوصا أنها فى حالة قد غلب فيها الحب على عقلها ومشاعرها ، فلم تلتفت إلا إليه .

## الشكوى والفصل فيها

ثم قال تعالى ﴿ **قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾ .

لما وجدت سيدها لدى الباب ، وكانت بحالة هياج وارتياب ، أرادت أن تؤثر عليه بما تنفعل له نفسه ، فقالت ما جزاء ( إلى آخر الآية ) .

أسرعت بالشكوى إليه لتكون أقرب إليه قبولاً ، وأملأ له أذنا وقلبا ، ولتصرف عن فكره الحالة

المريبة التى رآها عليها ، ولتنفعل نفسه بما تبديه من تأثير ، حتى لا يصدق ليوسف قولا إذا قال ، فقالت ﴿ **ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾ .

وقد قرنت بين الشكوى منه والحكم عليه بالسجن ، أو العذاب الأليم ، لتظهر لسيدها شدة غضبها وتألمها مما حصل منه من إرادة السوء ، حتى لا يرتاب فى حالتها التى رآها عليها ( وهذا من ضمن الكيد ) .

فانظر إلى عبارتها هل تجد فيها ما يدل على إرادة الفحشاء ، أو الميل إليها ، أو المخالطة كما يقولون ، مع أنها لو قالت ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة لكان أشرف لها ، وأقرب لقبول قولها ، وأنفى للريبة فى حالتها التى كانت عليها وقت مجىء سيدها .

وجد سيدنا يوسف عليه السلام نفسه أمام صاحب البيت مشكوا منه ، يراد به السجن أو العذاب الأليم . بدون ذنب جناه ، سوى العفة والأمانة ، فلم يجد مناصا من الدفاع عن نفسه لئلا يسجن أو يعذب العذاب الأليم ، أو يرمى بالقسوة ولولا ذلك لستر أمرها ، كما قال بعض المفسرين .

وهو فى دفاعه لم يتنصل من إرادة السوء ، بل ذكر السبب الذى كان من أجله أراد بها السوء ﴿ **فقال هى راودتنى عن نفسى** ﴾ وهذا إقرار ضمنى فى عرف التقاضى والتخاطب ، بأنه أراد بها السوء ، كما يقول القاضى للمتهم : هل ضربته ؟ فيقول إنه شتمنى . ومعناه أننى ضربته لأنه شتمنى ، فكذا هذا – أى أننى أردت بها السوء لأنها راودتنى عن نفسى ، وغلقت الأبواب وأرادت المخالطة بالقوة ، فأردت إساءتها لأمنعها ، فلما رأيتك انصرفت عنها .

وأما هى فأنكرت المراودة ، بدليل قولها أخيرا ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ فإنه يدلعلى أنها أنكرتها أولا ، وقع هذا القول فى نفس العزيز موقعا قلل من تأثير زوجته عليه ، فأخذ يفكر ويبحث من الصادق منهما .

حادثة حصلت فى بيته ، ولا شاهد فيها ، لأن الأبواب قد غلقت ، ولم يكن معهما أحد من الناس، وهى تدعى أنه أراد بها سوءا بدون سبب ، فأشكلت الحادثة عليه ، والتبست ، ولكن الله أراد إظهار براءة يوسف بشهادة شاهد من أهلها ، قد جعل القرينة حكماً وشاهداً فقال : ﴿ **إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين** ﴾ .

فإن قد القميص من الخلف يدلّ على انصرافه عنها ، وأنها تجره إليها لهذا الغرض ، فيكون صادقا ، ولو كان الذى وقع منه إرادة السوء فقط لما كان لجره إليها من خلفه بعد انصرافه عنها معنى ، بل هو خلاف المعروف عادة ، لأن الضعيف كالمرأة لا يجر القوى الذى يريد إيذاءه إليه بعد انصرافه عنه ، فقده

من الخلف يدل على أنها هى الطالبة له للمخالطة ، وقد القميص من الأمام يدل على أنه هو الذى أقبل عليها يريد بها سوءاً ، فأمسكت بتلابيبه ( كما هى عادة المرأة أو الضعيف إذا هجم عليه من يريد إيذاءه ) فقدت قميصه من الأمام ، فتكون صادقة فى أنه أراد بها السوء بدون سبب .

﴿ **فلما رأى قميصه قد من دبر** ﴾ تبين له أنه صادق ، وأنها كاذبة ولذلك وبخها بقوله ﴿ **إنه من كيدكن** ﴾ أى ما حصل منك من ادعاء إرادة السوء بدون سبب وإظهار الحقيقة من ضمن كيدكن ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ وأضاف الكيد إلى جميع النساء ، لأنه من عادتهن ، لأنهن يظهرن خلاف ما يضمرن ، ويخفين ما فى قلوبهن ليصلن إلى أغراضهن ، وربما كانت الإضافة إلى الجميع ليخفف من وقع التوبيخ عليها ، وهذا أظهر .

ثم قال ليوسف عليه السلام:﴿**يوسف أعرض عن هذا** ﴾ أى لا تذكره لأحد ، ولا تتأثر به ، ونصح زوجته بالتوبة والاستغفار من ذنبها وخطئها ، بقوله ﴿ **واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ .

وإلى هنا انتهت تلك الحادثة التى خلط فيها الناس خلطا ، وإنك إذا فهمتها على هذا النحو ، وقرأتها فى كتاب الله فإنك تشعر بجلال آيات الله وانسجامها ، وبديع نظامها ، وبعدها عن التأويل المؤدى للتنافر فى المعانى ، والاعتراض على الأنبياء عليهم السلام .

## [ بقية ]

قد يقول قائل : ما المراد بالسوء فى آيتى ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ ، ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ هل المراد به المراودة أو الميل إليها كما يقول بعض المفسرين ؟

والجواب أن المراد بالسوء هو ما تقدم ، دون المراودة والميل إليها .

وإلا كانت النسوة كاذبات حينما قلن : ما علمنا عليه من سوء ، فإنهن علمن أن امرأةالعزيز راودته عن نفسه فاستعصم ، إلى آخر ما ذكر ، ولا يصح أن يكن كاذبات فى هذا الموضع الذى ظهرت فيه الحقائق ، ولو كن كذلك لما حكى الله قولهن بدون أن يرد عليهن ، فظهر أن السوء هو الإيذاء ونحوه لا المراودة ، ونحوهما .

إن امرأة العزيز لما شاع أمرها تكلم فى شأنها النساء : ﴿ **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت** ﴾أى ليوسف ﴿ **اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن** ﴾ من الدهشة والذهول بسبب جماله الفائق ﴿ **وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ .

وفى هذه الشهادة ما يشعر بالعفاف الملكى ، وكرم الأخلاق ، وأنه غض النظر عنهن .

**﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين•قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين • فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ .**

فلم يتهم بالسوء بعد هذه الحادثة الأخيرة **﴿ إنه هو السميع العليم • ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾** .

لم يذكر الله لنا صراحة السبب الذى من أجله تمحلوه لإدخاله السجن ، ولكن الذى يؤخذ استنتاجا من القصة أن امرأة العزيز أخذت تكيد له لتنفيذ وعيدها بقولها **﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾** ..

فادعت أنه هو الذى أساء إلى هؤلاء النسوة ، فأدخلوه السجن من أجل ذلك ، رغم ظهور اختلاقها عليه وكذبها فيما ادعته سابقا ، ومما يدل على أنه سجن من أجل ذلك أنه لما أرسل إليه الملك رسوله ليحضره من السجن أبى أن يخرج منه حتى يتحقق للملك أنه حبس ظلما بدون ذنب جناه ، وأن ما ادّعوه عليه بخصوص هؤلاء النسوة غير صحيح .

قال تعالى ﴿ **فلما جاءه الرسول قال** ﴾ أى يوسف ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾ .

فأحضرهن الملك وسألهن ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ أى ما شأنكن وقت أن راودتن يوسف هل حصل منه إساءة لكن ؟ ﴿ فقلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء ﴾ أى لم يحصل لنا منه سوء ، بل لم نعلم عليه سوءا .

فدل ذلك دلالة استنباطية على أن الحبس كان بسبب الادعاء عليه بأنه أساءهن بتقطيع أيديهن ، ولذلك جاء فى تفسير النيسابورى عندقوله تعالى ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ أنها تسببت فى إدخاله السجن ا.هـ .

ولما ظهر لامرأة العزيز أن كيدها قد انكشف ، وبان للملك ، اعترفت بالحق ، وهو ما أنكرته أولا ، فقالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ﴾ أى هذا الاعتراف الذى أظهره أمامك ﴿ **ليعلم** ﴾ أى يوسف لأن الكلام مازال فى شأنه ﴿ **أنى لم أخنه بالغيب** ﴾ إذ أنى أظهر الآن صدقه وبراءته بعد أن خنته ، فادعيت عليه السوء ، وتسببت فى إدخاله السجن ، فأعترف الآن بذنبى ، وبحقيقة الأمر ، وحتى يصير الخفى علانية ، والخيانة غير خافية عليه .

والخيانة ضد الأمانة ، وفى الحديث ( إنما يجلس المتجالسان بالأمانة ) أى الصدق والإخلاص وعدم الغش .

ثم قالت : ﴿ وما أبرئ نفسى ﴾ فقد أذنبت وأسأت ، ثم اعتذرت عما كان منها ، فقالت ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ وقد أسأت بداعية منها ، ولكنى طامعة فى غفران الله ورحمته ، إذ نطقت بالحق ، واعترفت بالذنب ، والاعتراف يهدم الاقتراف ، ﴿ إن ربى غفور ﴾ لذنوب عباده ﴿ رحيم ﴾( بهم ) نسأله الرحمة والغفران .

ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام من إقرار النسوة ، واعتراف امرأة العزيز ، قال ﴿ الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ﴾ فذهبوا إليه يحملون هذه البشرى بالبراءة والاستخلاص للملك ، واعتراف امرأة العزيز ، وشهادة النسوة ، فخرج معهم كما أراد ظاهرة براءته وأمانته وعفته للملأ جميعاً . فلما وصل إلى الملك قال له ، ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وما جزاء الأمانة إلا الفلاح ، وحسن السمعة والعاقبة.

فظهر أن هذه القصة ليست مسوقة لبيان خطأ الأنبياء الذين يقول الله فيهم لنبينا ﷺ ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ وإنما سيقت لما فيها من حكم اجتماعية ، وقواعد عمرانية وأخلاقية لتكون نبراسا نستضىء به فى حياتنا .

وإنى أذكر بعض ما استنتجته منها ، بقدرما وصل إليه فهمى الكليل ، فأقول :

أولا :تنبيه الناس إلى العمل بالقرائن فيما يشكل من الأمور .

ثانيا : مقابلة الإحسان بالإساءة ظلم . ﴿ ولا يفلح الظالمون ﴾ .

ثالثا : خيانة المرأة لزوجها ظلم وكفر بالإحسان ، وعاقبته الخسران .

رابعاً : الأمين المخلص إذا اتقى الله نجاه ، وكافأه على أمانته وإخلاصه ، ولو أساء إليه من أخلص له .

خامساً : يبلغ الإنسان بالعلم والإحسان مقاما ساميا لدى الملوك والناس .

سادساً : اختيار السجن على فعل الكبيرة أو الخيانة ولو كان فيه التمتع بلذات الحياة كما يشاء ، من مال وغيره ، من صفات الأبطال .

سابعاً : مخالطة الرجال الأقوياء من الخدم وغيرهم لربات البيوت ، والخلوة بهن ، مدعاة للفساد والفجور ، إلا من عصم الله ، وفى الأحاديث كثيرة فى النهى عن ذلك .

ثامناً:التوقى من كيد النساء ومكرهن أقرب إلى الحزم ، وأبعد عن الظلم ، وأحسن عاقبة وعلى العاقل التثبت فى تصديقهم عند غضبهم .

تاسعاً : من المقاصد الشريفة لدى العقلاء أن يعملوا على نفى التهمة الباطلة عن أنفسهم ، وإظهار براءتهم ، خصوصا إذا كان ممن يقتدى بهم ، ولنا فى شريعتنا على ذلك أمثلة كثيرة ، وفقنا الله تعالى إلى اتباعها والعمل بها ، آمين .

## حديث النسوة

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)﴾

**المفردات**: ﴿ **فتاها** ﴾ : عبدها ورقيقها . ﴿ **والشغاف** ﴾ : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شغفت فلانا إذا أصبت شغاف قلبه . كما يقال كبدته إذا أصبت كبده . ﴿ **والضلال** ﴾ : الحيدة عن طريق الرشد وسنن العقل . ﴿ **بمكرهن** ﴾ : أي بقولهن . وسمى ذلك مكرا لأنهن كن يردن إغضابها كي تعرض عليهن يوسف لتبدى عذرها فيفزن بمشاهدته . ﴿ **وأعتدت** ﴾ : أعدت وهيأت . ﴿ **والمتكأ** ﴾: ما يجلس عليه من كراسي وأرائك . ﴿ **أكبرنه** ﴾ : أعظمنه ودهشن من جماله الرائع . ﴿ **وقطعن أيديهن** ﴾ : أي جرحنها . ﴿ **حاش لله** ﴾ : أي تنزيها لله أن يكون هذا المخلوق العجيب من جنس البشر . ﴿ **استعصم** ﴾ : استمسك بعروة عصمته التي ورثها عمن نشأوا عليها . ﴿ **الصاغرين** ﴾ : أي الأذلة المقهورين . ﴿ **أصب إليهن** ﴾ : أمل إلى موافقتهن على أهوائهن . ﴿ **الجاهلين** ﴾ : أي السفهاء الذين يرتكبون القبائح . ﴿ **فاستجاب له** ﴾ : أي أجاب دعاءه . ﴿ **وبدا** ﴾ : ظهر . ﴿ **والآيات** ﴾ : هي الشواهد الدالة على براءته عليه السلام . ﴿ **والحين** ﴾ : وقت من الزمن غير محدود .

شاع الخبر بين نسوة في المدينة ، فقلن بلسان الإنكار : إن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، **قد شغفها حباً** ، وما كان لها أن تفعل ذلك وهي السيدة التي تعيش في بيت الحكم ، وهو الفتى المملوك لها .

وقوله تعالى ﴿ **تراود فتاها** ﴾ بصيغة المضارع أى أنها مازالت مستمرة فى المراودة ، وقوله ﴿ **قد شغفها حباً** ﴾ أى اخترق حبه شغاف قلبها ، بحيث تمكن فيه كل تمكن ﴿ **إنا لنراها فى ضلال مبين** ﴾ .

وقد يتسرب الخبر عن طريق الخدم وغيرهم من الذين يعملون فى القصور ، بحيث يشيع وينتشر بين جماعة من أصحاب البيوتات .

فلما سمعت امرأة العزيز بمكرهن ، أى بقولهن الماكر ، فإنهن ما قلن هذا القول إلا لتدعوهن امرأة العزيز ، وتعرض عليهن يوسف ، فيملأن عيونهن بجماله .

قال المفسرون : فمكرت بهن ، كما مكرن بها ، ودعتهن إلى الطعام فى دارها ، وهيأت لهن ما يتكئن عليه من كراسى وأرائك ، كما هو المعروف فى بيوت العظماء ، وكان ذلك فى حجرة المائدة ، وأُعطت كل واحدة منهن سكينا لتقطع بها ما تأكل من لحم وفاكهة .

﴿ **وقالت اخرج عليهن** ﴾ أى وأمرته بالخروج عليهن ، وفى هذا إيماء إلى أنه كان فى حجرة فى داخل حجرة المائدة التى كن فيها ، محجوبا عنهن ، وقد تعمدت إتماما للحيلة والمكر بهن أن يفاجئهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، علما منها لما تكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها ما أرادت كما يشير إلى ذلك قوله : ﴿ **فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن** ﴾ .

أى فخرج عليهن ، فلما رأينه أعظمنه ، ودهشن لذلك الجمال البارع ، وذهلن ، فقطعن أيديهن بدلا من تقطيع ما يأكلن ذهولا عما يعملن ، أى فجرحنها بما فى أيديهن من السكاكين ، لفرط دهشتهن ، وخروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار ، حتى لم يشعرن بما عملن ، ولا ألمن لما نالهن من أذى ، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير فى كلامهم ، فيقولون : كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ، يريدون فأخطأتها فجرحت يدى ، حتى كدت أقطعها .

﴿ **وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ :

أى وقلن هذا على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى ، أن يكون هذا الشخص الذى لم يعهد مثاله فى جماله ، ولا فى عفته من النوع الإنسانى ، إن هو إلا ملك تمثل فى تلك الصورة البديعة التى تخلب الألباب ، وتدهش الأبصار .

روى عن زيد بن أسلم من مفسرى السلف : أعطتهن أترجًا وعسلا ، فكن يحززن بالسكين ، ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له:اخرج عليهن ، خرج فلما رأينه أعظمنه وتهيمن به ، حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الأترجة ، ولا يعقلن ، ولا يحسبن إلا أنهن يحززن الأترج ، وقد ذهبت عقولهن مما رأين ، وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، أى ما هكذا يكون البشر ، ما هذا إلا ملك كريم .

﴿ **قالت فذلكن الذى لمتننى فيه** ﴾ أى حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر ما رأيتن بأعينكن ، وما

أكبرتن فى أنفسكن ، وما فعلتن بأيديكن ، وما قلتن بألسنتكن ، فذلك هو الذى لمتننى فيه ، وأسرفتن فى لومى وتعنيفى ، وقلتن فى ما قلتن ، فما يوسف بالعبد العبرانى ، أو المملوك الكنعانى ، ولا بالخادم الصعلوك ، الذى شغف مولاته حبا وغراما ، وراودته عن نفسه ضلالا منها وهياما ، بل هو ملك تجلى فى صورة إنسان ، فماذا أنتن قائلات فى أمرى وهو المالك لسمعى وبصرى ، وإنى لأراه بشرا سويا إنسيا لا جنيا ، وجسدا لا ملكا روحانيا ، فأتصباه بكل ما أملك من كلام عذب ، فلا يصبو إلى ، ولا يظهر نحوى عطفا ، ولا يرفع إلىّ طرفا .

﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ أى ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أردته منه واستمسك بعروة العصمة التى ورثها عمن نشأوا عليها ، ولا عجب فإن نظره إلى الله لم يدع فى قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شغفها حباً .

﴿ **ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين** ﴾ .

أى ولئن لم يفعل ما آمره به مستقبلا ، كما لم يفعله ماضيا ، ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين ، فإن زوجى لا يخالف لى رغبة ، ولا يعصينى فى أمر ، وسيعاقبه بما أريد ، ويلقيه فى غيابات السجون ، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه ، وجعله كولده .

وفى ذلك إيماء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أولا ، فهناك أنذرته بسجن قد يكون على أخف صورة وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه وألطفها ، كحبس فى حجرة الدار ، أو لطمة على خديه تزيل منها الاحمرار ، وهنا أنذرته بسجن مؤكد ، وذل وصغار ، تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام ، فأشق الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار .

وفى هذا التهديد من ثقتها بسلطانها على زوجها ، مع علمه بأمرها ، واستعظامه لكيدها ، ما كان من حقه أن يجعل يوسف يخاف من تنفيذ إرادتها ، ويثبت لديه عدم غيرته عليها ، كما هو الحال لدى كثير من العظماء المترفين العاجزين عن إحصان أزواجهن ، والمحرومين من نعمة الأولاد منهن .

وربما تكون مبالغتها فى تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما فى قلبها منه من غل وجوى ، بظهور كذبها وصدقه ، وتصميمه على عصيان أمرها ، ولتظهر ليوسف أنها ليست فى أمرها على خيفة من أحد ، فتضيق عليه الحيل ، ولينصحنه فى موافقتها ، ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها .

يالله ، إن هذا الموقف يهد الجبال الراسيات ، وتدبير لا قبل لأشد العزائم على احتماله ، فامرأة ماكرة ، هتكت سترها ، وكاشفت نسوة بلدها بما تسر وتعلن من أمرها ، ونسوة تواطأن معها على الكيد له ، كما كادت له من قبل بمراودته عن نفسه ، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء ، وأبعاد تلك اللأواء إلا بمعونة من ربه ، وحفظه من نزعات الشيطان ، وكلاءة الرحمن ، ومن ثم جرى على لسانه ما أكنه جنانه :

﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾

أى قال ربى أنت العليم بالسر والنجوى ، والقدير على كشف تلك البلوى ، إن السجن الذى هددت به ، والمكث فى بيئة المجرمين على شظف العيش ، ورقة الحال ، أحب إلى نفسى مما يدعو إليه أُولئك النسوة من الاستمتاع بهن فى ترف القصور ، والاشتغال بحبهن عن حبك وبقربهن عن قربك .

وفى قوله ﴿ مما يدعوننى إليه ﴾ إيماء إلى أنهن خوفنه مخالفتها ، وزين له مطاوعتها ، فقلن له : أطع مولاتك وأنِلها ما تهوى ، لتكفى شرها ، وتأمن عقوبتها .

﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن أصْبُ إليهن ﴾ أى وإن لم تبعد عنى شراك كيدهن ، وتثبتنى على ما أنا عليه من العصمة أمِلْ إلى موافقتهن على أهوائهن ، وأقع فى شباك صيدهن ، وأرتع فى حمأة غوايتهن .

وقد لجأ يوسف إلى ألطاف ربه ، وسلك سبيل المرسلين من قبله فى فزعهم إلى مولاهم ، لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات ، وإظهارهم أن لا طاقة لهم إلا بمعونته سبحانه ، مبالغة فى استدعاء لطفه ، وعظيم كرمه ومنه .

﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ : أى من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات ، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات ، واجتراح السيئات ، فمن يعيش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات ، لا مهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب ، والسنن العادية .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما صبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه أن يديم له ما عوده من كشف السوء عنه ، فى قوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ .

﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ : أى فأجاب له ربه دعاءه ، الذى تضمنه قوله : ﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن ﴾ الخ ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ وعصمه من الجهل والسفه ، باتباع أهوائهن .

﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ : أى إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه ، وأخلص الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم ، وبما يصلح أحوالهم .

وفى هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنايته فى جميع أطواره وشئونه ، ورباه أكمل تربية ، وما خلّاه ونفسه فى أهون أموره . ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

أى ثم ظهر للعزيز وامرأته ، ومن يهمه أمرهما ، كالشاهد الذى شهد عليها من أهلها من الرأى مالم يكن ظاهرا لهم من قبل ، بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم ، وشهدوه بأعينهم ، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنسانا كالذين عرفوا فى أخلاقه وعفته ، واحتقاره للشهوات واللذات التى يتمتع بها سكان القصور ، وفى إيمانه بأن ربه لن يتركه ، بل يكلؤه بعين عنايته ، ويحرسه بوافر رعايته ، وقد استبان لهم ذلك من وجوه :

(١) إن افتتان سيدته فى مراودته ، وجذبها خلسات نظره ، لم تؤثر فى ميل قلبه إليها ، بل ظل معرضا عنها ، متجاهلا لها ، حتى إذا ما صارحته بما تريد استعاذ بربه ورب آبائه ، وعيرها بالخيانة لزوجها .
(٢) إنها لما غضبت وهمت بالبطش به ، هم بمقاومتها والبطش بها ، ولم يمنعه إلا ما رأى فى دخيلة نفسه من برهان ربه الذى يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء .
(٣) إنها حين اتهمته بالتعدى عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة فى اتهامها إياه ، وهو صادق فيما ادعاه من مراودتها إياه عن نفسه ، بدلالة القميص على ذلك .

كل هذا أثبت أن بقاءه فى هذه الدار بين ربتها وصديقاتها ، مثار فتنة لا تدرك غايتها ، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه ، لإخفاء ذكره ، وكف ألسنة الناس عنها فى أمره ، وأقسموا ليسجننه حتى حين ، دون تقيد بزمن معين ، ليروا ماذا يكون فيه من تأثير السجن ، وحديث الناس عنه .

وفى تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها ، تقوده كيف شاءت ، حتى فقد الغيرة عليها ، فهو يجرى وراء هواها ، ويستجلب رضاها ، حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه لإلحاق الهوان والصغار به ، حين أيست من طاعته ، وطمعت فى أن يذلله السجن لأمرها ، ويقف به عند مشيئتها .

## شهود يوسف

شهد الله تعالى ببراءة يوسف وهو خير الشاهدين ، قال تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ولم يقل كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء ، والفرق بين المعنيين بعيد ، إن قوله تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ يفيد أن يوسف كان ثابتا على بساط العفة ، ثباتا لا تزحزحه القواصف ، ولا تؤثر فيه العواصف ، فأبعدنا السوء والفحشاء عنه .

كذلك شهد ببراءته إبليس . فقد قال لرب العزة ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ۝ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[1] والله تعالى قال عن يوسف ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ . فهو من الذين استثناهم إبليس من الغواية .

كذلك شهد ببراءته شاهد من أهلها ، وهو الذى قال ﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

كذلك شهد ببراءته امرأة العزيز نفسها عندما قالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ .

وقالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

كذلك شهد ببراءته النسوة اللاتى قطعن أيديهن فقد قال لهن الملك ﴿ ما خطبكن إذ راودتن

(١) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة ص .

يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ . وكلمة سوء نكرة جاءت فى سياق النفى ، والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، أى ما علمنا عليه أى سوء .

وكأنى بيوسف عليه السلام ، وقد غلقت عليه امرأة العزيز الأبواب ، وأخذت تراوده عن نفسه ، فتقول : ما أجمل شعرك . قال : أول ما يتساقط منى بعد الموت . قالت : ما أجمل عينيك . قال : أول ما يسيل منى بعد الموت . قالت : ما أجمل جسمك . قال : أول ما يأكله الدود بعد الموت . قالت : هيت لك . قال : معاذ الله .

كانت تحلق به فى عالم الإغراء والغواية ، وكان يشدها شدا إلى الموت الذى يهزم اللذات ، فى بيت الوحشة ، وبيت الوحدة ، وبيت التراب ، وبيت الدود ، كأنى به يخاطب رب العزة فيقول ما قاله أحد الصالحين :

لما علمت بأن قلبى فارغٌ ممن سواك ملأته بهواك
وملأت كلى منك حتى لم أدع منى مكانا خاليا لسواك

لقد كان لها صنم تعبده ، فلما غلقت الأبواب قامت فألقت على الصنم غطاء ، قال لها يوسف : لم تغطين هذا الصنم ؟ قالت : أستحى أن يرانى وأنا أراودك عن نفسى . قال يوسف ، وقد أخذته الدهشة ، واستولى عليه العجب : تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر ، ولا تستحين من الله السميع البصير .

أبعد هذه العفة والخوف من الله ، والاستعاذة بالله ، تزل أقدام ، وتتعثر أقلام ، وينفلت خيال بعض الكاتبين من الذين يمضغون الهواء ، ويفتلون من الرمال حبالا ، ويجعلون من الحبة قبة ، ومن النملة فيلا ، إنهم أقزام يحاولون أن يطاولوا السماء ، أو أن يمدوا إلى الشمس يداً شلاء .

## محنة السجن

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

**المفردات :** ﴿ **أعصر خمراً** ﴾ **المراد عنبا يكون خمراً .** ﴿ **بتأويله** ﴾ : بتفسيره الذى يؤول إليه فى الخارج .
﴿ **تستفتيان** ﴾ : الاستفتاء طلب الفتوى أى السؤال عن المشكل المجهول والفتوى جوابه وهذا اللفظ مأخوذ من الفتوى الدالة على القوة والثقة . ﴿ **بضع** ﴾ : هى من ثلاث إلى تسع ويغلب أن يطلق على السبع .

قوله تعالى ﴿ **ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

قال قتاده : كان أحدهما ساقى الملك ، والآخر خبازه .

وقال السدى : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه فى طعامه وشرابه .

وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر فى السجن بالجود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمت ، وكثرة العبادة ، صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ، وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم .

ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبا شديداً ، وقالا له : والله لقد أحببناك حبا زائداً

وقال الضحاك فى قوله ﴿ **إنى أرانى أعصر خمرا** ﴾ يعنى عنبا ، قال : وأهل عمان يسمون العنب خمرا ، وقال الآخر وهو الخباز ﴿ **إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

**قوله تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ۞ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .**

أخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى منامهما ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال ﴿ **لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ .

قال مجاهد : يقول ﴿ **لا يأتيكما طعام ترزقانه** ﴾ فى يومكما ﴿ **إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياى ، لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد .

﴿ **واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ الآية .

يقول هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله يهدى قلبه ، ويعلمه مالم يكن يعلم ، ويجعله إماما يقتدى به فى الخير ، وداعيا إلى سبيل الرشاد . ﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس** ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ **من فضل الله علينا** ﴾ أى أوحاه إلينا ، وأمرنا به ﴿ **وعلى الناس** ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ، ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ : أى لا يعرفون نعمة الله عليهم ، بإرسال الرسل اليهم ، بل ﴿ بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾[1] .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة ابراهيم .

وقوله تعالى ﴿ **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع مادون سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما ، فقال ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ أى الذى ذل كل شىء لعز جلاله وعظمة سلطانه .

ثم بين أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هو جهل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ، ولهذا قال ﴿ **ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ أى حجة وبرهان .

ثم أخبرهما أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه

ثم قال تعالى ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى الذى أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقر الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أى فلهذا كان أكثرهم مشركين ، ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[1] .

قوله تعالى ﴿ **يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان** ﴾ .

يقول لهما ﴿ **يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا** ﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرا ، ولكنه لم يعينه ، لئلا يحزنه ذاك ، ولهذا أبهمه فى قوله ﴿ **وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه** ﴾ وهو نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ، لأن الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر ، فإذا عبرت وقعت .

وقوله تعالى ﴿ **وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين** ﴾ .

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم-لئلا يشعره أنه المصلوب- قال له ﴿ **أذكرنى عند ربك** ﴾ يقول : اذكر قصتى عند ربك ، وهو الملك .

فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبى الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله تعالى ﴿ **فأنساه الشيطان ذكر ربه** ﴾ عائد على الناجى ، كما قاله مجاهد وغير واحد .

(١) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .

وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع .

وهكذا أراد الله تعالى أن يمتحن يوسف بالسجن، بعدما نجاه من امرأة العزيز ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، ويبتلى المرء على قدر دينه .

ولا بد للمؤمن أن يكون صابرا عند البلاء ، راضيا بالقضاء ، شاكرا للنعماء ، فقد ورد فى الحديث : ( من رضى بقضائى،وقنع بعطائى ، وشكر نعمائى ، وصبر على بلائى كتبته صديقا ، وبعثته يوم القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائى ، ولم يقنع بعطائى ، ولم يشكر نعمائى ولم يصبر على بلائى ، فليخرج من تحت سمائى وليتخذ له ربا سوائى ) .

فاللهم إنا نشهدك ، ونشهد ملائكتك ، وحملة عرشك ، وجميع خلقك ، إننا قد رضينا بك رباً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين .

## رؤيـــا الملك

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

**المفردات** : ﴿ **السّمان** ﴾ : واحدها سمين وسمينة ، ﴿ **والعجاف** ﴾ : واحدها عجفاء أى هزيلة ضعيفة ، ﴿ **والسنابل** ﴾ : واحدها سنبلة وهى ما يكون فيها الحب ، ﴿ **واليابس من السبلَ** ﴾: ما آن حصاده ، ﴿ **وعبرت** ﴾الرؤيا وعبّرتها ( بالتخفيف والتشديد ) فسرتها ببيان المعنى الحقيقى المراد من المعنى المثالى كمن يعبُر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى ، ﴿ **والأضغاث** ﴾ : واحدها ضغث وهو الحُزمة من النبات ، ﴿ **والأحلام** ﴾ واحده حُلم ( بضمتين وبالتسكين

للتخفيف ) : مايرى فى النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التى تكون فى اليقظة ، وقد يكون مهوَّشاً مضطرباً فهو يشبّه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التى لا تناسب فيها ، ﴿ **وادكر** ﴾ : تذكر ( أصله اذتكر ) ، ﴿ **والدأب** ﴾ : استمرار الشيء على حال واحدة يقولون هو دائب بفعل كذا إذا استمر فى فعله ، ﴿ **فذروه** ﴾ : أى اتركوه وادخروه ، ﴿ **والشداد** ﴾ : الصعاب التى تشتد على الناس ، ﴿ **وتحصنون** ﴾ أى تحرزون وتدخرون للبذر ، ﴿ **وأغاثه** ﴾ : أعانه ونجاه ، وغوث الرجل : قال : واغوثاه ، واستغاث ربه : استنصره وسأله الغوث ، ﴿ **ويعصرون** ﴾ : أى مامن شأنه أن يعصر كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم والأشربة من القصب والنخيل .

ذكر المؤرخون أن ملك مصر فى عهد يوسف كان من ملوك الغرب الذين يسمون بالرعاة ( الهكسوس ) وأنه قد رأى رؤيا عجز الكهنة والعلماء ورجال الدولة عن تأويلها ، وقالوا : أضغاث أحلام . وكان من هذا أن لجئوا إلى يوسف فى تأويل الرؤيا ، وبه تم اتصاله بالملك ، وتعيينه وزيراً له .

﴿ **وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع** ﴾ بقرات ﴿ **عجاف** ﴾ هزيلات وأرى ﴿ **سبع سنبلات خضر** ﴾ وأخرى سنبلات يابسة مهيأة للقطوف ، ﴿ **يا أيها الملأ** ﴾ من قومى ﴿ **أفتونى فى رؤياى** ﴾ هذه ﴿ **إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ وتنقلون الخيال والرموز إلى الواقع والحقائق .

﴿ **قالوا** ﴾ هى أحلام مختلطة ، وخيالات غير منتظمة وهذه ﴿ **أضغاث أحلام** ﴾ لا تأويل لها وتفسير وإنما هى رموز مضطربة تنشأ من ارتباك فى المعدة ، وكدرة فى النفس أحياناً ، ﴿ **وما نحن بتأويل** ﴾ أمثالها ﴿ **بعالمين** ﴾ .

وهكذا إعداد الله لبعض خلقه ، وترتيبه لهم ، جعل الكهنة وعلماء المصريين يعجزون عن تأويل الرؤيا ، فيبحثون عمن يؤول لهم ، فلا يجدون إلا يوسف .

وقال صاحبه القديم الذى كان فى السجن معه واختبره عن كثب ، وأدرك ما عليه نفسه ، وما عنده من علوم ومعارف فى تأويل الرؤيا ، وقد تذكره بعد طول الزمن : يا قوم لا تبحثوا ، فإنى ﴿ **أنبئكم** ﴾ بتأويل هذا الحلم ﴿ **فأرسلون** ﴾ إلى السجن فإن فيه فتى قد خبرته ووقفت منه على أسرار ، فأرسلوه ليوسف فقابله وقال له : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا فى** ﴾ رؤيا رآها الملك تتلخص فى ﴿ **سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** ﴾ أخبرنى فإنك بتأويل الرؤيا من العالمين .

قال يوسف مؤولا الرؤيا ، ومبيناً لهم ما يجب عمله لتلافى الخطر الذى تشير له الرؤية بالرمز ، مع اعتزازه برأيه وأن له صفة الآمر الناصح :

﴿ **تزرعون** ﴾ على معنى ازرعوا ﴿ **سبع سنين** ﴾ قمحاً وشعيراً دائبين مجدين بلا انقطاع وإذا فعلتم ذلك ﴿ **فما حصدتم** ﴾ فاتركوه فى سنبله ليكون الحب لكم والتبن لدوابكم .

وهذه طريقة عملية دقيقة لحفظ المحصول .

اصنعوا هذا فى المحصول كله ﴿ **إلا قليلا مما تأكلون** ﴾ فهذا هو تأويل البقرات السبع ، والسنابل السبع .

﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك سبع** ﴾ سنين فى جدبهن وانقطاع الخير فيهن ، يأكلن ما قدمت تلك السنون الأولى من المحصول المدّخر ، والمراد ما فى تلك السنين تأكل الكل ﴿ **إلا قليلا مما تحصنون** ﴾ وتدخرون للبذر ﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك** ﴾ كله عام فيه يكون الرخاء على أتم ما يكون وأحبه ، ﴿ **عام فيه يغاث الناس** ﴾ بكل أنواع الإغاثة من مطر وحسن محصول ، ومنع للآفات وفى هذا العام ﴿ **يعصرون** ﴾ عصير القصب والفاكهة ، وعصير العنب والسمسم والزيتون ألخ .

وهذا الإخبار الأخير الخاص بهذا العام من قبيل الوحى والإلهام ، وليس جزءاً من تأويل الرؤيا . والله أعلم .

## الإفراج عن يوسف عليه السلام

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

**المفردات :** ﴿ **بال النسوة** ﴾ : حالهن وأمرهن الذى يشغل البال ، ﴿ **خطبكن** ﴾ : أمركن العظيم وخطبكن الجسيم ، ﴿ **حصحص الحق** ﴾ : ظهر الحق .

﴿ **أستخلصه** ﴾ : المراد أجعله خالصاً لنفسى لا يشاركنى فيه أحد . ﴿ **مكين** ﴾ : ذو مكانة . ﴿ **يتبوأ** ﴾ : ينزل من مصر فى أى مكان أراده ، والمراد أنه صاحب الأمر .

يقول تعالى إخباراً عن الملك ، لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التى كان رآها بما أعجبه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام ، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه .

فقال : ﴿ **ائتونى به** ﴾ أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، ﴿ **فلما جاءه الرسول** ﴾ بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ، ونزاهة عرضه ، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز . وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلماً وعدواناً .

فقال : ﴿ **ارجع إلى ربك** ﴾ الآية .

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك.والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه .

فقد روى الإمام أحمد والصحيحان عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ **رب أرنى كيف تحيي الموتى** ﴾ الآية . ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبث فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ﴾[1].

وفى لفظ أحمد عن أبي هريرة عن النبى ﷺ فى قوله ﴿ **فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم** ﴾ فقال رسول الله ﷺ ( لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر )[2].

وقال عبد الرازق فى الحديث المرسل عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر » .

قوله تعالى : ﴿ **قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه** ﴾ .

إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهن كلهن ، وهو يريد امرأة العزيز ، وزيره وهو العزيز قال الملك للنسوة اللاتى قطعن أيديهن : ﴿ **ما خطبكن** ﴾ أى شأنكن وخبركن ﴿ **إذ راودتن يوسف عن نفسه** ﴾ يعنى يوم الضيافة .

﴿ **قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ أى قالت النسوة جواباً للملك حاش لله أن يكون يوسف متهماً والله ﴿ **ما علمنا عليه من سوء** ﴾ .

فعند ذلك ﴿ **قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق** ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد تقول الآن تبين الحق ، وظهر وبرز .

﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ أى فى قوله ﴿ **هى راودتنى عن نفسى** ﴾ ﴿ **ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب** ﴾ :

تقول إنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ﴿ **وأن الله لا يهدى كيد الخائنين** ﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١) وفى التفسير ( سورة ٢ : ٤٦ ) . ومسلم فى الإيمان (٢٣٨) وفى الفضائل (١٥٢) . وابن ماجه فى الفتن (٢٣) . والإمام أحمد فى ( ٢ : ٣٢٦ ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ( ٢ : ٣٤٦ ، ٣٨٩ ) .